

صَلَّى
وَسَلَّمَ
عَلَيْهِ

مُحَمَّدٌ

المثل الأعلى

عَرَبِيَّة
مُحَمَّدُ السَّبَّاحِي

297

نُور: مَكْتَبَةُ الْأَدَابِ

٤٢ مِيْدَانُ الْأُدْبَارَةِ تَلَّة: ٣٩٠٠٨٦٨

مَحْمَدٌ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

المثل الأعلى

للمؤرخ الإنجليزي

توماس كارليل

عربه

محمد السباعي

مكتبة الآداب

٤٢ ميلان الأديرا - القاهرة
ن٥: ٣٩٠٠٨٦٨ - ٣٩١٩٣٧٧

فهرست الكتاب

- ٦ * كلمة الناشر
- ٨ * ترجمة المؤلف - وترجمة المترجم
- ١٠ من أكبر الممار القول إن محمداً كذاب
- ١١ قلوب خبيثة
- ١٢ قوانين الطبيعة - الرجل الكبير - إخلاصه
- ١٤ كلمات الرجل العظيم
- ١٥ هفوات الرجل العظيم
- ١٦ العرب وصفة جريرة العرب
- ١٨ التدين في العرب - سفر أيوب كتب في بلاد العرب
- ١٩ الحجر الأسود والسكينة
- ٢٠ بشر زعم - السكينة
- ٢٢ مولد محمد ونشأته
- ٢٣ سفره للشام والتقاءه بالراهب بحيرا
- ٢٤ أمية محمد
- ٢٥ صدق محمد منذ طفولته - الابتسام الصادق والكاذب
- ٢٦ عيشته المسادة وزواجه بخديجة

- ٢٧ محمد برىء من الطمع الدنيوى وظلمه ونافذ البصيرة
- ٢٩ الرجل العظيم ينظر من خلال الظواهر إلى البواطن
- ٣٠ اخذ لاه محمد بنفسه واهتز له الناس فى رمضان
- ٣٠ ابتداء الجمعة
- ٣١ حقيقة الإسلام وكلية جوارحه فيه — كتبنا مسليون
- ٣٢ الوحى وجبريل
- ٣٣ معنى كلمة محمد رسول الله
- ٢٣ فضل السيدة خديجة وعلى وزيد بن حارثه
- ٣٤ الدعوة إلى الإسلام — سرودة على ونجدة
- ٣٥ استبأه قريش من عمل محمد
- ٣٦ نصيحة أبى طالب وعزيمة محمد — احتماله الشدائد
- ٣٧ تألب قريش على محمد ليقتلوه — هجرته إلى المدينة
- ٣٨ الرد على القائلين بأن الإسلام انتشر بالسيف
- ٣٩ لا يصح إلا الصحيح — عدل الطبيعة
- ٤١ قضاء محمد على وثنية العرب والعقائد الفاشية فى ملك الأيام
- ٤٢ القرآن وإعجازه
- ٤٣ الإخلاص من فضائل القرآن
- ٤٤ الإخلاص منشأ الفضائل
- ٤٥ القرآن محل أسرار الأمور — المعجزات فى نظر الإسلام
- ٤٧ الرد على متهمى الإسلام بالشهوانية

٤٨	براعة محمد من الشهوات وتواضعه وتشفه
٤٩	مكرهات محمد وأخلاقه
٥٠	براعة محمد من الرياء والتصنع
٥١	ما كان محمد بعابث
٥٢	المساراة بين الفاس — الزكاة — الجنة والنار
٥٣	الصيام في الإسلام
٥٤	منزلة الإسلام في قلوب المسلمين
٥٥	تأثير الإسلام على العرب وفضله عليهم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كلية الناشر

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ،
والصلوة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .
أما بعد . . فإن المسلم وظيفته الحقيقية إقامة الحق ومقاومة الباطل .
وإقامة الحق لها أوجه متعددة ، كما أن مقاومة الباطل لها أيضا
أوجه متعددة .

وبين أيدينا هنا رسالة أراد صاحبها - وهو نهراني من أبرز
شخصيات القرن التاسع عشر - وأعظم فلاسفة الإنجليز قاطبة ،
أن يثبت بها سقاً ويغال باطلا . فلقد هاله ما تعرضت له شخصية
الرسول ﷺ من تعسف وظلم ، فبحث وتمعن حتى أدرك جوانب
العظيمة ومواطن التقدير والإعجاب في ذلك الذي « أدبه ربه فأحسن
تأديبه » ، ففرض لها في موضوعية وحيدة جديران بالتقدير .

واقصد شجعتنا ما وجدناه في هذه الرسالة من إنصاف ونزاهة مقصد
إلى إعادة نشرها عن ترجمة المغفور له الأديب محمد السباعي .
ولكن لفتنا أثناء الطبع ، أن المؤلف ، وإن كنا لا نبخسه حقه

من الشناعة على روعة فكره وصفاء ذهنه وروحته وشجاعته وصديق مقصده - قد وقع في بعض الأخطاء في تقييم الحقيقة الإسلامية ؛ إذ نزح في بعض فهمه إلى ما أشاعه بعض المستشرقين ومؤرخي الغرب المخترعين منه دس لبعض الأباطيل والآكاذيب التاريخية ، لذا فإنه وإن أدرك بعض جوانب عظمة الإسلام ، فقد غابت عنه جوانب أعظم . . لو علمها لسكان بما لمسته فيه من روح الإنصاف ولحقات الحق من كبار دعاة المسلمين .

ولقد رأينا عند إعادة نشر هذه الرسالة عن ترجمة الأديب محمد السباعي أن نطمح كما هي دون إضافة أو حذف أى حرف من النص الأصلي ، ولكن واجبنا يقتضينا أن نعلق في الهامش على ما يستوجب تصحيح المفاهيم ، وإعادة الحق إلى نصابه ، وهداية الإنسانية إلى الحقيقة الغائبة عنها ألا وهي كلمة التوحيد .
والله يقول الحق وهو يهدي السبيل .

مكتبة الآداب

ذو الحجة ١٤١٣ هـ

مايو ١٩٩٣ م

المؤلف

توماس كارلايل : ١٧٩٥ - ١٨٨١

فيلسوف ومؤرخ وأديب انجليزي . من أبرز شخصيات القرن التاسع عشر . تأثر بجوانه وشيبار وترجم بعض أعمالها . انتقد المجتمع الانجليزي في أول أعماله « سارتور رزاتوس » ١٨٣٤ .

ولقد آثر كارلايل بأهمية ودور البعولات والشخصيات القيادية في صناعة التاريخ وإصلاح المجتمع ، وكتب في ذلك كتابه « الأبطال والبعولة » ، البطولة في التاريخ سنة ١٨٤١ . وكان كارلايل من أبرز شخصيات عصره وتأثر به الكثيرون من أمثال جون رسكن وماترو أرنولد .

المترجم

محمد السباعي :

محمد بن محمد بن عبد الوهاب السباعي ، منتهى بليغ ، من كبار المترجمين عن الإنجليزية . وُلِدَ وفاته بالقاهرة ١٢٩٨ - ١٣٥٠ هـ ١٨٨١ - ١٩٣١ م ترجم « الأبطال توماس كارلايل T. Carlyle وقصه مدينتين » (طبع)

و « بلاغة الإنجليز » ثلاثة أجزاء (طبع) ويسمى مختارات لوين ، و « التريفة » (طبع) اسامير ، و رسائل لاديسون . ومقالة ماكولي جوف « لاديسون أيها » (طبع) . والسمير والصور كلاهما مقالات ، ومذكرات (طبع) . وأبطال عصر في السياسة المعاصرة وبعض رجالها . وبعده وفاته جمع ابنه يوسف السباعي (الأديب والكاتب القوي ١٩٧٨) مائة قصة مما كتبه والده صاحب الترجمة أو نقله عن الإنجليزية وأشرها في علم واحد سنة ١٣٧٦ هـ ١٩٥٧ م

البطل " في صورة رسول

محمد بن عبد الله

نلتفتل الآن من تلك المصور الحشفة - هصور الوثنية الشمالية -
إلى دين آخر في أمة أخرى - دين الإلهام في أمة العرب - وما هي إلا
نقلة بسيطة وبون شامع ، بل أي رفعة وارتقاء نراه هنا في أحوال
العالم العامة وأفكاره .

في هذا الطور الجديد ، لم ير الناس في بطلمهم إلهاً ، بل رسولاً بوحى
من الإله ، وهذه هي الصورة الثانية للبطل ، فأما الأولى وأقدم الجميع
فقد ذهبت إلى حيث لا تعود أبداً ، وإن ترى الناس يؤطون البطل
مهما عظم ، بل لنا أن نسأل أكان من أي ناس قط ، أنهم عبدوا إله
رجل يرونه ويلبسونه ، فقالوا هذا خالق السكون ؟ أنا لا أظن ذلك ،
لأنما يقولون هذا القول في رجل يتذكرونه ، أو كانوا رأوه ، هل أن
هذا أيضاً أن يكون قط ، وإن يؤله البطل من ثم فصاعداً ، ولو بلغ
مستوى المنظمة .

لقد كان اعتبار الرجل العظيم إلهاً غلطاً وحشية فاحشة ، ولكن
فلنقل إن الرجل العظيم ما يرح في جميع الأزمان لغزاً من الألغاز ،

(١) الرسالة والنجوة عقدنا - معشر السامعين - أمر غير مكتسبه
بل هي وحى إلهي وهبة من الله . لذلك ليس لنا أن نستعمل -
كسامعين - هذه الألفاظ وإن أسمناهم المستشرق لأنها على قدر فهمه .

لا ندرى كيف نفسره ، ولا كيف نستقبله ونعامله ! ولعل أهم من إيا
جيل من الأجيال ، هو كيفية استقباله لرجله العظيم ، وسواء استقبلوه
كإله أو كسبي ، أو كيفما كان ، فذلك هو السؤال الأكبر ، ومن طريق
إجابتهم عن هذا السؤال وكيفية مذهبهم في ذلك الأمر ، يمكننا أن
نبصر صميم حالتهم الروحية كما لو كان من خلال نافذة .

فإن الرجل العظيم إذا كان مصدره واحداً - أعني من ذات الله ،
فهو هانس واحد : « أودين » أو « لوثر » أو « جونسون » أو « بارنز »
وأرجو أن أوفق إلى إقناعكم أن جميع هؤلاء من طينة واحدة ، وأنه
لم يحدث الخلاف العظيم بين أحدهم والآخر ، إلا الهينة التي يسكتونها
هم ، أو الطريقة التي يستقبلها بها أهل زمنهم .

من أكبر العار القبول إن محمداً كذاب :

لقد أصبح من أكبر العار ، على أي فرد متمدين من أبناء هذا العصر
أن يصغى إلى ما يظن من أن دين الإسلام كذب ، وأن محمداً خداع
مزور ، وأن لما أن نحارب ما يشاع من مثل هذه الأقوال السخيفة المخجلة
فإن الرسالة التي أداها ذلك الرسول ما زالت السراج المنير مدة اثني عشر
قرناً لتنهو ما تقي مليون من الناس (١) أمثالنا ، خلقهم الله الذي خالقنا ،
أفكان أحدكم يظن أن هذه الرسالة التي عاشت بها ، وماتت عليها هذه
الملايين الفاتكة الحصر والإحصاء أكذوبة وخذعة ؟ أما أنا فلا أستطيع
أن أرى هذا الرأي أبداً ، ولو أن الكذب والغش يروجان عند خلق الله

(١) الآن أكثر من ألف مليون نسمة .

هذا الرواج ، ومصادقان مفهوم مثل ذلك التصديق والقبول ، فما الناس إلا به وبجائين ، وما الحياة إلا سنف وعيب وأضلالة ، كان الأولى بها أن لا تغلق .

فوا أسئله ما أسوأ هذا الزعم ، وما أضعف أهله وأحقهم بالرائه والمرحة .

قلوب خبيثة :

وبعد ، فعلى من أراد أن يبلغ منزلة ما فى علوم الكائنات أن لا يصدق شيئاً البتة من أقوال أو أشك السفهاء ! فإنها نتائج جليل كفر ، وعصر جمود والحاد ، وهى دليل على خبيث القلوب ، وفساد الضمائر ، وموت الأرواح فى حياة الأبدان ، وأهل العالم لم يرق رأياً أكفر من هذا والام .

الرجل الكاذب لا يستطيع أن يبنى بيتاً من الطوب .

فكيف يوجد ديناً (١) ؟

وهل رأيتم قط معشر الاخوان أن رجلاً كاذباً يستطيع أن يوجد ديناً ويبلش به ، دجياً والله ، إن الرجل الكاذب لا يقدر أن يبنى بيتاً من الطوب ! فهو إذا لم يكن عليمًا بخصائص الجهد والجص والتراب وما شاكل ذلك فما ذلك الذى يبنيه بيت ، وإنما هو تل من الانقاض ، وكثيب من استغلال المواد ، نعم ، وليس جديراً أن يبق على دعائمه اثني عشر قرناً ، يسكنه مائتا مليون من الانفس ، ولكنه جدير أن تنهار أركانه فيندم كانه لم يكن .

(١) الرسول ﷺ لم يوجد الدين ، وإنما هو مبلغ لهذا الدين .

قوانين الطبيعة :

والى لأعلم أنه على المرء أن يسير في جميع أمره طبقاً لقوانين الطبيعة ، وإلا أبت أن نحمي طلبته وتعطيه بغيته ، وكذب والله ما يذيعه أولئك الكفار ، وإن زخرفوه حتى خيلوه حقاً ، وزور وباطل وإن زينوه حتى أومروه صدقاً ، وسنة والله ومصاب أن ينخدع الناس شعوباً وأممًا بهذه الأضاليل ، وتسود الكذبة وتقود بها تيك الأباطيل ، وإنما هو كما ذكرت لكم من فيل الأوراق المالية المزورة يحتمل لها الكذاب حتى يخرجها من كفه الإثيمة ، ويحقق مصابها بالغير لابه ، وأى مصاب وأبيكم ؟ مصاب كصاحب الثورة الفرنسية وأشباهاها من الفتن والحق ، تصيح بملء أفواهها هذه الأوراق كاذبة ! »

الرجل الكبير :

أما الرجل الكبير خاصة ، فإني أقول عنه يقيناً إنه من المحال أن يكون كاذباً ، فإني أرى الصدق أساسه وأساس كل ما به من فضل وحمدة ، وعندى أنه ما كان رجل كبير : ميرابو ، أو نابليون ، أو مارنر ، أو كرمويل - كفوا للتبليغ بعمل ما إلا وكان الصدق والإخلاص وحب الخير أول باعثاته على محاولة ما يحاول ، أعنى أنه رجل صادق النية جاد مخلص قبل كل شيء .

الإخلاص للرجل الكبير :

بل أقول إن الإخلاص — الإخلاص الحر العميق الكبير — هو

أول خواص الرجل العظيم كيفما كان ، لا أريد إخلاص ذلك الرجل الذي لا يرجح يفترخ على الناس بإخلاصه ، كلا فإن هذا حقيق جداً وأيم الله — هذا إخلاص سطحى وقبح — وهو في الغالب ضرر وفتنة لأنما إخلاص الرجل الكبير هو عما لا يستطيع أن يتحدث به صاحبه كلا ولا يشعر به ، بل لأحسب أنه ربما شعر من نفسه بعدم الإخلاص ، إذ أين ذلك الذي يستلجح أن يازم منهج الحق يوماً واحداً ؟ نعم ، إن للرجل الكبير لا يفترخ بإخلاصه قط ، بل هو لا يسأل نفسه أهى عفاصة ، أو بمجارة أخرى أقول إن إخلاصه غير متوقف على إرادته ، فهو مخلص على الرغم من نفسه ، سواء أراد أم لم يرد ، هو يرى الوجود حقيقة كبرى تروعه وتهوله — حقيقة لا يستطيع أن يارب من جلالها الباعر مهما حاول ، وهكذا خال الله ذهنه ، وخلته ذهنه على هذه الصورة هو أول أسباب عظمته ، هو يرى الكون مدهناً وعظيماً وحقاً كالموت ، وحقاً كالحياة . وهذه الحقيقة لا تفارقه أبداً ، وإن فارقت منظم الناس فساروا على غير هدى ، وخطوا في غياهب الضلال والعمالة ، بل تظل هذه الحقيقة كل لحظة بين جنبيه ونسب عينيه كأنها مكتوبة بحروف من الذهب ، لا شك فيها ولا ريب ، ها هي ها هي — فاعرفوا هذا كم الله أن هذه هي أولى صفات العظيم ، وهذا حدثه الجوهري وتاريخه ، وقد توجد هذه في الرجل الصغير ، فهو جديرة أن توجد في نفس كل إنسان خلته الله ، وأكثها من لوازم الرجل العظيم ، فلا يكون الرجل عظيماً إلا بها .

مثل هذا الرجل هو ما نسميه رجلاً أصلياً صافى الجهر كريم العنصر

— فهو رسول مبعوث من الأبدية المجهولة برسالة إلينا ، فقد نسميه
شاعراً أو نبياً أو إلهاً (١) ، وما هذا أو ذاك ، فقد نعلم أن قوله ليس
بمأخوذ من رجل غيره ، ولكنه صادر من آيات حقائق الأشياء ، نعم
هو يرى ما نحن كل شيء ، لا يوجب عنه ذلك باطل الاصطلاحات وكاذبة
الاهتبارات والمعادات والمعتقدات ، ومنهيف الأوامر والآراء ،
وكيف وأن الحقيقة التسطع لعينه حتى يكاد يعيش لنورها .

كلمات الرجل العظيم :

ثم لما نظرت إلى كلمات العظيم ، شاعراً كان أو فيلسوفاً أو نبياً
أو فارساً أو ملكاً ، ألا تراها ضرباً من الوحي (٢) أو الرجل العظيم في
نظري مخلوق من عوالم الدنيا وأشياء الكون ، فهو جزء من الحقائق
الجوهرية للأشياء وقد دلّ الله على وجوده بعدة آيات ، أرى أن
أحدثها وأبدّها هو الرجل العظيم الذي علمه الله العلم والحكمة ، فوجب
عليها أن نضحي إليه قبل كل شيء .

وهل ذلك فلسفاً نعدّ محمداً هذا قط رجلاً كاذباً متصنعاً يتذرع
بالحيل والوسائل إلى بغية ، أو يطمح إلى درجة ملك أو سلطان ، أو
غير ذلك من الحقائق والصغائر ، وما الرسالة التي أداها إلا حق
صراح ، وما كلمته إلا صوت صادق صادر من العالم المجهول (٣) ، كلا ما محمد

(١) هذا من الخلط الذي لا يسيغه المسلم .

(٢) الوحي الإلهي لا يكون إلا للأنبياء وعن طريق الملائكة
وليس ككلام الشعراء أو الفلاسفة .

(٣) هذا على حدّ فهمه ، أما عندنا فهو مرسل من الله تعالى لا من

العالم المجهول .

بالكاذب ولا الملق ولئلا هو قلعة من الحياة قد تنظر عنها قلب
الطبيعية فإذا هي شهاب قد أضاع العالم أجمع ، ذلك أمر الله ، وذلك
فضل الله يؤتاه من إلهاء ، والله ذو الفضل العظيم ، وهذه حقيقة تدمغ
كل باطل وتدحض سمجة القوم الكافرين .

هفوات الرجل العظيم :

وهب الحمد (سعيد السام) غلطات وهفوات — وأى لإنسان
لا يخطئ لما تاح من الله وحده — فإذ ليس ، طاقة أية هفوات أو غلطات
أن تروى بذلك الخفية الكبرى ، وهي أنه رجل صادق ونبي مرسل .
وأنا على العموم نجسم الهفوات ونجمل من الجنائيات سمجاً تستر
هنا المواقف السكينة — الهفوات ؟ أي حسب القياس أنه يخلو منها لإنسان ؟
إن أكبر الهفوات عندي أن يحسب المرء أنه برىء من الهفوات ،
ما بال القياس لا يذكره نبي الله تبارك ؟ ألم يرتكب داود أفطع
الجرائم وأشنع الآثام (١) ؟ ألا ما أهني أسر الذنوب وأصغر خطر
الغلطات — الجزئيات والقشور — إذا كان إهابها كريماً وسرها حراً
شريعياً ، وكان في التوبة النصوح ، والندم الصادق ، ويخز الضمير ،
ولذع النداء كره ، أكبر مكفر للسيدات ، ومظهر لأردان الروح من أدران
الشوائب ، أليست التوبة أكرم أعمال المرء قاطبة وأقدس أفعاله ؟
لئلا الأم الذنب هو كما قالت حسيان المرء أنه برىء من كل ذنب ، وكل
ففس هذا شأنها ، فهي في نظري مطلقة من الوطاء والمروءة ، ومبعدة
عن النقي والبر والحق — أو هي مبدقة ، أولاً نشأ فقل هي نقيّة نقاء
(١) وهذا النوع من أكاذيب اليهود وأضاليهم التي أشاعوها
بين الناس .

الزمل الجاف الميت ، وإنى أحسب أن سيرة داود وتاريخه كما هو مدون في مواهبه (١) ، لأصدق آية على ارتقاء المرء في مدارج المكرمات ، وعلى سحره العقل والحوى — حرباً طالما ينزوم فيها العقل هزيمة تضدهمض جانبه ، وتتركه لى (٢) مشفياً (٣) على الانقراض ، ولسكنها حرب بغير نهاية مشفوعة أبداً بالهكاه والتوبة واستنهاض المزم الصادق ، الذى لا يرجع يتجدد بعد كل هزيمة .

يا ويل النفس الإنسانية ما أشد خطاياها بين ضعفها وقوة شمواتها ، أو ليسمى حياة الإنسان فى هذه الدنيا سلسلة عثرات ؟ وهل فى استطاعة المرء خلاف ذلك ؟ وهل يطيق فى ظلمات هذه الحياة إلا الاعتساف والتعبط ؟ فما ينهض من هائرة إلا لآخرى ، وبين هذه وتلك نجيب وعبرات وشهيق وزفرات ، ولأنما الأمر المهم هو : أياظر بهواه بعد كل هذه الجاهدات ؟ وإذا لمسفعج عن كثير من الجزئيات ما دام الباب حقاً ، والمسمج صحيحاً ، وما كانت الجزئيات وسدها لتعرفنا حقيقة إنسان (٤) .

العرب وصفة جزيرة العرب :

كانت عرب الجاهلية أمة كريمة ، تسكن بلاداً كريمة ، وكأما خاق الله البلاد وأهلها على تمام وفاق ، فكان تمتشبه قريب بين وعورة جهالها ووعورة أخلاقهم ، وبين جناء منظرها وجفاء طباعهم ، وكان يلطف من قسوة قلوبهم مزاج من الالين والدماثة ، كما كان يبدط من عبوس وجوه البلاد ، رياض شخيرات وقيعان ذات أمواه وكلاء ،

(١) سبق القول أن هذا اقتراف لا يعتمد عليه .

(٢) ملق . (٣) مقارب . (٤) هذا الكلام لا ينطبق على الانبياء .

وكان الأعرابي ضامتا لا يتكلم إلا فيما يعنيه ، إذ كان يسكن أرضا
قفراً يباها خرساء ، تظاها بحر آمن الرمل يصطلى بحره النهار طوله ،
ويكافح بحر وجهه نهعات القر ليلاه .

رأت رجلاً أما إذا الشمس عارضت

فيمتحي ، وأما بالعشى فيمنحصر

ولا أحسب أناساً شأنهم إلا أفراد وسط البيد والقفار ، يحادثون
ظواهر الطبيعة ، ويناجون أسرارها إلا أنهم يكونون أذكىء القلوب ،
حداد الخواطر ، خفاف الحركة ثاقبي النظر ، وإذا صبح أن الفرس
هم فرنسيوا المشرق ، فالعرب لا شك طليانته ، والحق أقول لقد كان
أولئك العرب قوماً أقوياء النفوس ، كأن أخلاقهم سيول دفاقة ، لها
من شدة حميم وقوة إرادتهم أحصن سور وأمنع حاجز ، وهذه
وأبيكم أم الفضائل ، وذروة الشرف الباذخ ، وقد كانوا أحدهم يصفه أنه
أعدائه فيكرم مشواه وينحدر له ؛ فإذا أزمع الرحيل خلع عليه وحمله
وشيمه ، ثم هو بغد كل ذلك لا يحجم عن أن يقاومه من عادت به إليه
الفرص ، وكان العربي أغاب وقته صامناً ، فإذا قال أفصبح .

ويزعمون أن العرب من عنبر اليهود ، والحقبة أنهم شاركوا
اليهود في مرارة الجدة ، ونالوا بهم في حلاوة الشمالك ، ورقة الظرف .
وفي ألمعية القريضة ، وأريحية القلب ، وكان لهم قبل زمن محمد (عليه
السلام) مناسبات في الشمر ، يجرؤونها بسوق عكاظ في جنوب البلاد ،
حيث كانت تقام أسواق النجارة ، فإذا انتهت الأسواق تداشد الشعراء
القصاصد ، ابتغاء جائزة تجعل الأجود قريضا ، والأحكم قافية ، فكان
الأعرابي الجملة ذوا الطباع الوعرة ، يرتاحون للغات القصيدة ،

ويجدون أن زناهم أية لذة فيهما فتقون على المشهد كالفراس ، ويتهاكون
التدين في العرب :

وأرى طوقاً العرب صفة من صفات الإسرائيليين واضحة فيهم .
وأسمها ثمرة الفخائل جميعها والحمد لله الذي جعلها للأوهر التدين ، فإنهم
كانوا ، ما برحوا شمس يدى التمسك بدينهم كيفما كان ، كانوا
يعبدون الكواكب وكثيراً من الكائنات الطبيعية ، يرونها مظاهر
للخالق ودلائل على عظمته ، فهم إذ إن يك خطاً فلاس من جميع
وجوهه ، فإنهم نوعات الله ما برحت وجه ما، وزآله ودلائل عليه،
ألسنا كما قد علمت نعتهم ما منيرة للباع وفهيله ، أن يكون يدرك
ما بالكائنات من أسرار الجلال والجلال أو أسرار الجمال الأشعري ،
كما اصطليح الناس على تسميته ؟ وقد كان طوياً العرب عدة أنبياء كلهم
أستار قبيلته وبرشها حسبي يفتبه ، يبايع عليه ورأيه (١) ، ثم أليس
لدينا من البراهين الباطنة ، ما يثبت لنا أى حكمة بليغة ورأى مسدد ،
وأى تقوى وإسلام قد يكون طوياً البدو المفكرين ؟

سفر أيوب كتب في بلاد العرب :

وقد اتفق النقاد أن سفر أيوب ، أحد أجزاء التوراة كتاباً
المتدس قد كتب في بلاد العرب . ورأى في هذا الكتاب فضلاً عن
كل ما كتب عنه أنه من أشرف ما سطر يراع ودونت يد كاتب (٢) ،
ولا يكاد المرء يصدق أنه من آثار العبرانيين ، لما فيه من عمومية

(١) هذا خلل بين النبوة وبين زعامة القبيلة .

(٢) هذا اعتراف منه بأن التوراة مكتوبة لا منزلة .

الأفكار مع شرفها وسورها - غير مزية مخالف التعميم والتعظيم ،
وحسب الكتاب شرفاً أن يكون يضرب بمرق في كل نفس ، ويمت
بصلة إلى كل قلب ، ويكون كالبيت ينضى إليه منتهى السبل ، وكالأرج
الضائع (١) تتنازع ، جميع الأنوف ، والكتاب المذكور هو أول ما جاءنا
عن مسألة المسائل : حياة الإنسان وفعل الله به في هذه الدار ، وقد
أتانا بذلك في أنصح بيان ، وأشد إخلاص ، وأحسن سهولة .

والتي لأتبعين فيه العين البصيرة ، والقلب النافذ الفهم ، الحزم
الطشوع ، فهو الحق من حيث حقيقته ، والنظر الراسخ في قرارة كل شيء
وصميم كل أمر - ما أدى روحاني ، ألا تذكر من ذكر
الفرس : والله الذي أودع الرعدة حنجرته (٢) ، فهل ترى صهيله لإفقهة
لوقية الرياح ، هذا والله أجود الاستعارة ، وما أحسب أن في عالم
التشبيه كله ما يماثل ذلك أو يقاربه ، ذلك في الكتاب المذكور من
آيات الحزن الشريف ، والنيل الحسن الجميل ، وما قرأت فيه قط
إلا حسبت فيه قلب الإنسانية يرتجف شجى ووجداً ، ودمع الإنسانية
يفيض حرقاً وكداً ، فيها لها من رقة في شدة ، ورأفة في قوة ، وما
أشبهها إلا بسحر الليلة الصائمة رقة نسيم في جلال مشهود عظيم ، وإلا
بالكون وكل ما فيه من أنجم وبحار وليل ونهار ، وما أحسب أن في
جميع النوراة شيئاً يدانيه فضلاً وقيمة .

الحجر الأسود والسكبية :

والحجر الأسود كان من أعم معبودات العرب ، ولا يزال لكن

(١) ضائع المسك إذا انتشرت رائحته بقوة .

(٢) أي أودع في حنجرة الفرس قوة الرعدة .

يمك في البقاء المسمى « الكعبة » . وقد ذكر المؤرخ الروماني « سيبلاست » الكعبة فقال : إنها كانت في مدته أشرف معابد العالم طراً وأقدمها ، وذلك قبل الميلاد بثمانين عاماً ، وقال المؤرخ « سيبلاست » : إن الحجر الأسود ربما كان من رجوم السموات ، فإذا صح ذلك (١) فلا بد أن إننا قد بهر به ساطع من الجوا والحجر موجود الآن الى جانب البئر زمزم ، والكعبة مبنية فوقها .

بئر زمزم :

والبئر كما تعلمون منظره حينئذ كان سار مفرح ، ينبس الماء من الحجر الأصم ، كالحياة من الموت ، لما بالسك بها إذا كانت تفيض . ولقد اشتق لها اسمها « زمزم » من صوت تنجسها وهديرها . والعرب توهم أنها انهمس من أقدام هاجر وإسماعيل في هذا من الله وشفاها ، وقد قالها العرب ، والحجر الأسود ، وشادوا عليها الكعبة منذ آلاف من السنين .

الكعبة :

وما أعجب هذه الكعبة وأعجب شأنها ؟ فهي في هذه الآونة قائمة على قواعدها عليها الكعبة السوداء السوداء التي وسماها الله كل عام ، يبلغ ارتفاعها سبعاً وعشرين ذراعاً حولها دائرة مزدوجة من الحديد وبها صنف من المصابيح وبها نقوش وخاروف عجيب ، وستوقه تلك المصابيح الليلة وتشرق تحمي اليوم المشرفة ، فنعم أثر الماضي

(١) الحجر الأسود من حجارة الجنة كما أخبرنا الرسول ﷺ في

صحيح الحديث .

هي ونعم ميراث الغابر ، هذه كعبة المسلمين ، ومن أقاصى المشرق إلى
أخريات المغرب ، - من دلهى إلى مراكش تتوجه أبصار العديد
المجتمعة من عباد الله المصائب شهابها ، وتهفو قلوبهم نحوها ، خمس مرات
هذا اليوم وكل يوم ، نعم لى والله من أجل مراكز المعجورة وأشرف
أقطابها .

ومن شرف البئر زهرم ، وقدسية الحجر الأسود ، ومن حج
القبائل إلى ذباك المسكن كان منشأ مدينة مكة ، ولقد كانت هذه المدينة
وقتها ما ذات بال وشأن ، وإن كانت الآن قد فقدت كثيراً من أهميتها (١) ،
وموقعها من حيث هي مدينة سيئة جداً ؛ إذ هي واقعة في بطن من
الأرض كثير الرمال ، وسط هضاب قفرة ، وللال مجذبة ، على مسافة
بعيدة من البحر ، يمتد لها جميع ذخائرها من جهات أخرى حتى الحزن ،
ولسكن الذى انتقل إلى إيجاد هذه المدينة هو أن كثيراً من الحجيج
كانوا يطالبون المأوى ، ثم إن أما كن الحج ما زالت من قديم الزمان
تسند هي التجارة ، فأول يوم ياتى فيه الحجيج تلتقى فيه التجار كذلك
والباعة ، والغاسق وجدوا أنفسهم يجتمعون لغرض من الأغراض ، رأوا
أنه لا بأس عليهم أن يقتصوا كل ما يعرض لهم من المنافع ، وإن لم
يسكن فى الحسبان ، لذلك صارت مكة سوق بلاد العرب بأجمعها ،
والمركز لكل ما كان من التجارة بين الهند وبين الشام ومصر ، بل
وبين إيطاليا . وقد بلغ سكانها فى حين من الأحيان مائة ألف نسمة
بين هائمين ومشتريين وموددين لبضائع الشرق والغرب ، وباعة

(١) بل لم تفقد قيمتها فى أفئدة المسلمين .

للساكولات والغلال ، وكانت حكومتها ضرباً من الجمهورية
الارستوقراطية ، عليها صبغة دينية ، وذلك أنهم كانوا ينتخبون لها
بطريقة غير منظمة ، عشرة رجال من قبيلة عظمتى ، فيكون هؤلاء
حكام مكة وحراس السكبية ، وكانت لقريش في عهد محمد (وأسرة
محمد من قبيلة قريش) وكان سائر الامة مبدداً في أنحاء تلك الرمال ،
قبائل تفصل بين الواحده والأخرى البعيد والغفار ، وعلى كل قبيلة أمير
أو أمراء . ووبما كان الأمير راعياً أو ناقل أمتعة ، ويكون في الغالب
غازياً . وكانت الحرب لا تتخذ بين بعض هذه القبائل وبعضها ،
ولم يك يؤلف بينهم سلف على إلا التفاوض بالسكبية ، حيث كان
يجمعهم على اختلاف وثنيتهم مذهب واحد ورابطة الدم واللغة ، وعلى
هذه الطريقة عاش العرب دهوراً خاملة الذكر غامضى النمان - أماساً
فرى مناقب جليلة وصفات كبيرة ، يلتفتون من حيث لا يشعرون ،
اليوم الذى يشاد فيسه بذكرهم ويسير في الآفاق صيبتهم ،
ويرتفع إلى عنان السماء صوتهم ، وما ذلك ببعيد ، وكأنما
كانت وثنيتهم قد وصلت إلى طور الاضمحلال ، وأذنت بالسقوط ،
وقد حدثت بينهم دواعى اختلاط وفوران ، وكان قد بلغهم على مدى
القرون غوامض أنباء عن أكبر سعادة وقعت على وجه البسيطة —
أعنى حياة المسيح (وفاته) (١) وهى التى أحدثت انقلاباً هائلاً في جميع
سكان العالم . فلم تعد هذه الأنباء تأثيرها من الفوران في أحشاء
الامة العربية .

مولد محمد ونشأته :

وكان بين هؤلاء العرب الذى تلك حالهم ، أن ولد محمد (عليه
(١) الصحيح دفعه كما أخبرنا القرآن .

السلام) عام ٥٨٠ ميلادية ، وكان من أسرة هاشم من قبيلة قريش ، وقد مات أبوه عقب مولده ، ولما بلغ عمره ستة أعوام توفيت أمه - وكان لها شهرة بالجمال والفضل والعقل ، فقام عليه جده وهو شيخ قد ناهز المائة من عمره وكان سالماً ياراً ، وكان ابنه عبد الله أحب أولاده إليه ، فأبصرت عينه الحرمة في محمد هورة عبد الله ، فأحب اليتيم الصغير بلاء قلبه ، وكان يقول يدبني أن يحسن القيام على ذلك الصبي الجميل ، الذي قد فاق سائر الأسر والقبيلة حسناً وفضلاً ، ولما حضرت الشيخ الوفاء والغلām لم يتجاوز الدامين ، عهد به إلى أبي طالب أكبر أعمامه رأس الأسرة بعده ، فرباه عنه - وكان رجلاً عاقلاً كما يشهد بذلك كل دليل - على أحسن نظام عربي .

سفره للشام والتأوه بالراهب بھيرا :

ولما شب محمد وترعرع صار يصحب عمه في أسفار تجارية وما أشبهه . وفي الثامنة عشرة من عمره نراه فارساً متاعلاً يتبع عمه في الحروب (١) ، غير أن أهم أسفاره وبما كان ذلك الذي حدث قبل هذا التاريخ بهضيمتين - رسالة إلى شارف الشام ، إذ وجد الفقي نفسه هناك في عالم جديد ازاء مسألة أجنبية عظيمة الأهمية جداً في نظره ، أدنى الديانة المسيحية (٢) ، وإلى اسمت أدري ما ذا أقول عن ذلك الراهب سرجياس بھيرا ، الذي يزعم أن أباً طالب ومحمداً سكنا معه في دار ، ولا ماذا

(١) حرب الفجار ، حرب كانت بين قريش ومن معها من كنانة وقيس عيلان وكان النبي ﷺ في العشرين من عمره حضر هذه الحرب مع عمومتة . (٢) هذا من الغزو الرفيع ؛ فإن النبي ﷺ ذهب مع عمه إلى طالب الذي ذهب للتجارة ، وكان بھيرا على عقيدة أن عيسى رسول الله ، وبشر أباً طالب بأن من معه هو خاتم الرسل .

هسهه يتعلمه غلام في هذه السن الصغيرة من أى راهب ما (١)، فإن محمداً لم يكن يتجاوز لاذ ذلك الرابعة عشر ، ولم يعرف إلا لغته ، ولا شك أن كثيراً من أحوال الشام ومشاهدها لم يكن في نظره إلا خليطاً مشوشاً ، من أشياء ينكرها ولا يفهمها ولكن الغلام كان له عينان ، ثاقبتان ، ولا بد من أن يكون قد انطبع على لوح فؤاده أمور وشؤون ، فأقامت في ثفايا ضميره ولو غير مفهومة ريثما يشخصها له كره الغداة ومر العشى ، وتحلم له يد الزمن يوماً ما ، فتخرج منها آراء وعقائد ، ونظرات نافذات ، فاعمل هذه الرحلات الشامية كانت لمحمد أوائل خير كثير ، وفوائد جمّة .

أمية محمد :

ثم لا ننسى شيئاً آخر ، وبدوا أنه لم يتلق دروساً على أستاذ أبداً ، وكانت صناعة الخط حديثاً العهد إذ ذاك في بلاد العرب ، ويظهر لي أن الحقيقة هي أن محمداً لم يكن يعرف الخط والقراءة ، وكل ما تعلم هو عيشة الصحراء وأحوالها ، وكل ما وفق إلى معرفته هو ما أمكنه أن يشاهده بعينه ، ويتلقاه بفؤاده ، من هذا السكون العديم النهاية ، وعجيب وأيم الله أمية محمد ، نعم أنه لم يعرف من العالم ، ولا من علومه إلا ما تيسر له أن يهصره بنفسه ، أو يصل إلى سمعه في ظلمات صحراء العرب ، ولم يضرمه ولم يزر به أنه لم يعرف علوم العالم ، لا قديمها ولا حديثها ، لأنه كان بنفسه غنياً عن كل ذلك ، ولم يقتبس محمد من نور أى لإنسان آخر ، ولم يخترف من مشاهل غيره ، ولم يكن في جميع أشباهه من الأنبياء

(١) كانت حياته ^{بمكة} يتلقاها ومصابه ورسلاته وخبراته وتجاوبه تهمة لثمة الوحى وتربية له ، وليس له في ذلك من معلم إلا الله .

والعظماء - أرائك الذين أشبههم بالمصاييح الهادئة في ظلمات الدهور -
 من كان ابن عمه ويمنه أدنى صلة ، وإنما نشأ وعاش وحده في أحشاء
 الصخر ، وإنما هنالك وحده بين الطبيعة وبين أفساره .
صدق محمد منذ طفولته :

ولوحظ عليه منذ فوائده (١) أنه كان شاباً مفكراً ، وقد سماه وفقاً له
 الأيمن - رجل الصدق والوفاء - الصدق في أفعاله وأقواله وأفكاره ،
 وقد لاحظوا أن ما من كلمة تخرج من فيه إلا وفيها حكمة بليغة ، ولما
 لا عرف عنه أنه كان كثير الصمت ، يسكت حيث لا موجب للكلام ،
 فإذا لظن ، فما شئت من لب وفضل وإخلاص وحكمة ، لا يتناول
 غرضاً فيتركه إلا وقد أثار شبهته ، وكشف ظلمته ، وأبان حقيقته ،
 واستثار ذمته ، وهكذا يكون الكلام إلا فلا ، وقد رأناه طول
 حياته ، رجلاً راسخ المبدأ ، صارم المزم ، بعيد الهمة ، كريماً جراً
 وموفاً تقيماً فاضلاً حراً - رجلاً شديداً الجهد مخلصاً ، وهو مع ذلك
 سهل الجانب ، لين المريقة (٢) ، جهم البشر (٣) والطلاقة - حميد العشرة ، حلو
 الإيناس ، بل ربما مازح وداعب .
الابتسام الصادق والكاذب :

وكان على العموم تقياً وسجماً ابتساماً مشرقة من فؤاد صادق ،
 لأن من الناس من تكون ابتسامته كاذبة ككذب أفعاله وأحواله -
 هؤلاء لا يستطيعون أن يبتسموا ، وكان محمد جميل الوجه وضوء الملامة
 (١) أي فتوته . (٢) لين : يسكون الان أي يستعمل الرقة .
 واللين رغم قوته . (٣) أي بشوش .

حسن القامة ، زاهى اللون (١) ، له عينان سوداوان ، تملأان ، وإنى
 لأحسب فى جبينه ذلك العرق الذى كان ينفخ ويمسك فى حال غضبه
 كالعرق المقوس الوارد فى قصة «القفازة الجراء لوالتر سكوت» وكان
 هذا العرق خصيصاً فى بؤى هاشم ، واسكنه كان أبين فى شمد وأظهر ،
 نعم لقد كان هذا الرجل سعاد الطابع ، نارى المزاج ، واسكنه كان عادلاً
 صادق النية ، كان ذكى اللب ، شهيم الفؤاد :

لو ذعياً كأنما بين جنبيه هـ مصابيح كل ليل بجم
 عتلتاً ناراً ونوراً ، رجلاً عظيماً بفطرتة ، لم تشقه مدرسة ،
 ولا هتبه معلم ، وهو غنى عن ذلك كالأشوك استغنت عن التفتيح ،
 فأدى عمله فى الحياة وحده فى أعان الصحراء .

عيشته الخاصة وزواجه بتديجة :

وما ألت وما أوضح قصته مع تديجة ، وكيف أنه كان أولاً يسافر
 فى تجارات لها إلى أسواق الشام ، وكيف كان يشجع فى ذلك أقوم مشاهير
 الحرم والأمانة ، وكيف جعل شكرها له يزداد ، وحبها ينمو ، ولما
 زوجت منه كانت فى الأربعين ، وكان هو لم يتجاوز الخامسة والعشرين
 وكان لا يزال عليها مسحة من ملاحه ، ولقد عاش مع زوجته هذه على
 أتم وفاق ، وألفة وصفاء وغبطة ، يخلص لها الحب وحبها .
 وما يعطل دعوى المائنين (أن محمداً لم يكن صادقاً فى رسالته بل
 كان ملفقاً مزوراً) أنه قضى عتوان شبابه ، وحرارة شبابه ، فى الملك

(١) كان ^{كأن} أدهر اللون .

للعيشة المادية المطمئنة ، لم يحاول أنفاها إحداث ضجة ولا دوى ،
 بما يكون وراءه ذكر وشهرة وجاه وسلطة ، ولما يك إلا بعد الأربعين
 أن تحدث برسالة سماوية ، ومن هذا التاريخ تبتدى حوادثه وشواذه ،
 حقيقة كانت أو مختلفة (١) ، وفي هذا التاريخ توفيت السيدة خديجة ، نعم أئمة
 كان حتى ذلك الوقته يقتنع بالعيش المادى الساكن ، وكان حسبه من
 الذكر والشهرة حسن آراء الجيران فيه ، وجميل ظفونهم به ، ولم يك
 إلا بعد أن ذهب الشباب ، وأقبل المشيب ، أن فار بصدده ذلك
 الركان الذى كان هاجعا ، ونار يريد أمراً جليلًا وشأنًا عظيمًا .

محمد برى من الطمع الدنيوى :

ويزعم المتعصبون من النصارى والملاحدون أن محمدًا لم يكن يريد
 بقيامه إلا الشهرة الشخصية ، ومنما خراجاه والسلطان ، كلاهما سم الله ،
 لقد كان في فؤاد ذلك الرجل الكبير ابن الفقار والفلوات ، المتوقد
 المتلذذ ، المتفليم النفس ، المملوء رحمة وخيرآ ، وحنانًا وبرآ ، وحكمة
 وحسبى (٢) ، وأرية ونهى — أفكار غير الطمع الدنيوى ، ونوايا خلاف
 طلب السلطة والجاه .

محمد مخلص نافذ البصيرة :

لا يرضى بالاصطلاحات الكاذبة
 وكيف وتلك نفس صامئة كهيبة ، ورجل من الذين لا يمكنهم
 إلا أن يكونوا معاصرين جهادين ، فيبتازى آخرين يرضون بالاصطلاحات

(١) أى سواء حدثت أو اختلقتها عليه قریش .

(٢) الحمى : العقل .

الكاذبة ، يسرون طبق الاعتبارات الباطلة ، إذ ترى محمدا لم يرض أن
يلتفع بمألوف الأكاذيب ويتوشح بمتبع الأباطيل ، لقد كان منفردا
بفكره العظيمة ، وبحقائق الأمور والكائنات ، لقد كان سر الوجود
يستلج لعينيه كما قلت بأهواله وغوافه ، وروافقه ومباهره ، لم يك
هنالك من الأباطيل ما يحجب ذلك عنه ، فكأن لسان حال ذلك السرى
المائل يناجيه « ها أنا ذا ، فثل هذا الإخلاص لا يخلو من معنى إلهى
مقدس ، وما كلمة مثل هذا الرجل إلا صوت خارج من صميم قلب
الطبيعة ، فإذا تكلم فشكل الأذان برغمها صاغية ، وكل القلوب واعية ،
وكل كلام ما هذا ذلك هباء وكل قول جفاء ، وما زال منذ الأعوام
الطوال - منذ أيام رحلاته وأسفاره يحول بخاطره آلاف من الأفكار :
ما ذا أنا ؟ وما ذلك الشيء العديم النهاية الذى أعيش فيه ، والذى يسميه
الناس كونآ ؟ وما هى الحياة ؟ وما هو الموت ؟ وماذا أعتقد ؟ وماذا
أفعل ؟ فهل أجابته عن ذلك صخور جبل حراء أو شमार يخ طود الطور ،
أو تملك القفار والفلات ؟ كلا ولا قبة الفلك الدوار ، واختلاف الليل
والنهار ، ولا النجوم الزاهرة ، والأنواء الماطرة ، لم يجبه لا هذا ولا
ذلك ، وما للجواب عن ذلك إلا روح الرجل والاما أودع الله
فيه من سره !

ومنا ما ينفى لىكل إنسان أن يسأل عنه نفسه ، فقد أحسن
ذلك الرجل القفرى ، أن هذه كبرى المسائل ، وأهم الأمور ، وكل
شئ عظيم الأهمية فى جانبها ، وكان إذا بحث عن الجواب فى فرق اليونان

الجلدية أو في روايات اليهود المبهمة، أو نظام وثنية العرب الفاسد ليحمده.

الرجل العظيم ينظر من خلال الظواهر إلى البواطن ولا يتعبد

بالمعادن والتقاليد :

وقد قلت إن أهم خصائص البطل ، وأول صفاته وآخرها هي أن
ينظر من خلال الظواهر إلى البواطن ، فأما العادات والاستعمالات
والاعتبارات والاصطلاحات فيعندها ، جيدة كانت أو رديئة ، وكان
يقول في نفسه : « هذه الأوثان التي يعبدها القوم لابد من أن يكون
وراءها ودونها شيء ما هي إلا رمز له ^(١) ، وإشارة إليه ، ولأنه يرى باطل
وزور وقطع من الخشب لا تنثر ولا تنفع ، وما لهذا الرجل
والأصنام أن تأتي تؤثر في مثل ، أو تأن ولو مرصعت بالنجوم لا بالذهب ،
ولو عبدها المجهاج ^(٢) من عدنان ، والآقيال ^(٣) من حمير ^(٤) ؟ أي تخير
له في هذه ولو عبدها الناس كافة ؟ لأنه في بلادهم في واد ، هم يعبدون
في ضلالتهم وهو ماثل بين يدي الطبيعة قد سطعت أعينهم الحقيقة
المائلة ، فلما إن يجهلونها ، ولأنهم فقد حبلى بعبادته وكان من الخاسرين .
فاتجنبها يا محمد ! أحب لا بد من أن توجد الجواب ، أينهم السكك الذين
أنه الطمع وحسب الدنيا هو الذي أقام محمداً وأثاره ؟ حتى وأيم الله
وسخافة وهو من هذا الزعم ، أي فائدة لمثل هذا الرجل في جميع بلاد
العرب ، وفي تاج قيصر وصولجان كسرى وجميع ما بالارض من

(١) ما كان مألوفاً يظن أن وراء الأصنام شيئاً ، ولأنها كانت بتقديده
أنها باطل . (٢) جمع جهاج وهو السيد (٣) جمع قبل وهو الملك .
(٤) بكسر الحاء وسكون الميم ملوك اليمن .

تبيحان وصوالجة ، رأى تصير الممالك والديان جميعها بعد
حين من الدهر ؟ أفى مشيخة مكة ، وقت شيب منفض العرف ، أفى ملك
كمبرى وتاج ذهب الثوبة ، منجاة للمرء ومظرة ؟ كلا ... إذن فلنصره
صفحة من مذهب الجورن القائل لمن محمد كاذب ولذمت مرافقهم
عاراً وسبة وسخافة وحماً وانزلاً بنفوسنا عنه ولنرفع .

اخلاء محمد بنفسه واعتزله الناس في شهر رمضان :

وكان من شأن محمد أن يعتزل الناس شهر رمضان ، فينقطع إلى
السكون والوحدة ، دأب العرب بعاداتهم ، ونعمت العادة ، ما أجل وأنفع ،
ولا سيما لرجل كمحمد ، لقد كان يخلو إلى نفسه فيناجى ضميره ، صامعاً
بين الجبال الصامته متفتحاً صدره لأصوات السكون الغامضة الخفية ،
أجل حبذا تلك عادة ونعمت .

ابتداء البمشة :

فلما كان في الأربعين من عمره ، وقد خلا إلى نفسه في نار جهنم
(محرام) قرب مكة شهر رمضان ، ارتسك في تلك المسائل الكبرى ،
إذا هو قله خرج إلى خديجة ذات يوم وكان قد اصطحبها ذلك الامام
وأثرتا قريباً من مكان خلوقه ، فقال لها لافه بفضل الله فله استعجلى
فانضى السر ، واستثار كامن الآس ، وانه قد أنارت الشبهة ، وانجلى
الشك وبرج الخفاء ، وأن جميع هذه الأصنام محال وليست إلا أخشاباً
حقيرة ، وأن لا إله إلا الله وحده لا شريك له فهو الحق وكل ما خلاه
باطل ، خلقنا وبرزقنا ، وما نحن وسائر الخلق والكانات إلا ظل له

(١) أى بعد زواجه منها .

وستار يحجب النور الابدي ، والرواق السرمدي ، الله أكبر
ولله الحمد .

حقيقة الإسلام وكلمة (جوته) فيه :

ثم الإسلام وهو أن نسلم الأمر لله ، ونذعن له ونسكن إليه ونتوكل عليه ، وأن القوة كل القوة هي في الاستئمان لحكمه والخضوع لحكمته ، والرضا بقضائه ، أية كانت في هذه الدنيا وفي الآخرة ، ومهما يصيبنا به الله ولو كان الموت الزوال ، فلنناله بوجه مبسوط ، ونفس مفتحة ، راضية ، ونعلم أنه الخير وأن لا خير إلا هو .

كلنا مسلمون :

ولقد قال شاعر الألمان وأعظم عظمائهم (جوته) : « إذا كان ذلك هو الإسلام ، فكنا إذن مسلمون » نعم كل من كان فاسلاً شريفاً ، الخلق فهو مسلم ، وقدماً قبيلاً ، أن منتهى العقل والحكمة ليس في مجرد الإذعان للضرورة . فإن الضرورة تخضع المرء برغم أنه ، ولا فضل فيما يأتيه الإنسان مكرماً - بل في اليقين بأن الضرورة الإلهية المرة هي خير ما يقع للإنسان ، وأفضل ما يناله ، وإن الله في ذلك حكمة تلطف عن الأفهام وتدق عن الأذهان ؛ وأنه من الافس والسخف أن يجعل الإنسان من دماغه المشبيل ، ميزاناً لذلك العالم بأحواله ، بل عليه أن يعتد أن للسكون قانوناً عادلاً ، وإن غاب عن إدراكه ، وأن الخير هو أساس السكون والعلاج روج الوجود ، والتمنع لباب الحياة ، نعم عليه أن يعرف ذلك ويعتقده ويتبعه في سكوت وتقوى .

أقول وما زالني هذه الخطة المثلى ، والمذهب الأشرف الاطهر ، وما زال الرجل مصيباً وظافراً ، وحرّاً وكريماً وسائراً على المنهج الاقوم وسالكاً سبيل السعادة ، وما دام معتصماً بمجمل الله ، متمسكاً بقانون الطبيعة ، الاكبر الامكن ، غير مهال بالتوازيين السطحية ، والظواهر الوقتية ، وحسابات الربح والخسارة ؛ فهو ظافر إذا اتبع ذلك القانون الكبير الجوهري - قطب رحي السكون وبحور الدهر - وليس بظافر إذا فعل غير ذلك ، وحقاً إن أول وسيلة تؤدى إلى اتباع هذا القانون هو الاعتقاد بوجوده ثم بأنه صالح ، بل لا شيء غيره صالح ؛ وهذا يا إخواني هو روح الإسلام ؛ وهذا هو أيضاً روح النصرانية ، والإسلام لو تفقهون ضرب من النصرانية ؛ والإسلام والنصرانية يأتينا أن نتوكل على الله قبل كل شيء (١) ، وأن نفيطم النفس عن الشهوات ونهني القلب عن الهوى ، وأن لا نفهمج في عنان المني ، وأن نعبر على البث والأسى ، وأن نعرف أننا لا نعرف شيئاً ، وأن نرضى من الله كل ما قسم ، ونعدها يداً بيضاء ، ونعمة غراء ، ونقول الحمد لله على كل حال وتبارك الله ذو الفضل والجلال ، ونقول : إنا بقسمة الله راضون ، ولو كان ما قسم لنا المنون .

الوحي وجبريل :

فمن فضائل الإسلام : تضحية النفس في سبيل الله ، وهذا أشرف ما نزل من السماء على بنى الأرض ، نعم هو نور الله قد سطع في روح ذلك الرجل ، فأزاد ظلماتها ، ورضياء باهر ، كشف تلك الظلمات التي

(١) الأصح أن النصرانية الصحيحة هي الإسلام دين عيسى عليه السلام.

كانت تؤذي بالحسرة والحلاك، وقد سماه (١) محمد (عليه السلام) وحياً
 و (جبريل) ، وأيضاً يستطيع أن يحدث له أسماء؟ ألم يحنى في الإنجيل أن
 وسى الله يهبنا الفهم والإدراك؟ ولا شك أن العلم والفن إذ إلى صميم الأمور
 وجواهر الأشياء لى من أغمض الأمر لا يكاد المتفلقيون يلمسون
 منه إلا قشوره ، وقد قال نوقايس : (أليس الإيمان هو المعجزة
 الحقة الدالة على الله ؟) فشعور محمد إذا اشعلت روحه بلمهيب هذه
 الحقيقة الساطعة ، بأن الحقيقة المذكورة هى أهم ما يجب على الناس علمه
 لم يك إلا أمراً بديهيّاً .

معنى كلمة محمد رسول الله :

وكون الله قد أنعم عليه بكشف ما له ، ونجاة من الهلاك والظلمة ،
 وكونه قد أصبح معطراً إلى إظامارها للعالم أجمع - هذا كله هو معنى
 كلمة (محمد رسول الله) وهذا هو الصدق الجلى والحق المبين .

ففضل السيدة خديجة ، وعلى ، وزيد بن حارثة :

وتخيل اليها أن الصالحة خديجة أصغت إليه في دهشة وشك ، ثم آمنت
 وقالت « أى وربى إنه لحق » وتخيّل أن محمداً شكر لها ذلك الصنيع .
 ورأى أن فى إيمانها بكلمته الخاصة المأذونة من بركان صدره ، جيلاً يفوق
 كل ما أسدت إليه من قبل ، فإنه ليس أرواح أنفس المارة ، ولا أناج الحشاه
 من أن يجد له شريكاً فى اعتقاده ، ولقد قال نوقايس : « ما رأيت شيئاً قط
 أكد ليقينى ، وأوثق لاعتقادى من انضمام إنسان آخر إلى فى رأيى ، زعمى »

(١) بل لم يسمه محمد ﷺ وحياً ، وإنما هو وحى الله .

لأنه الصنيع أغرّ ، ونعمة وفيرة ، وكذلك ما أنفك محمد يذكر خديجة حتى أتى ربه ، حتى أن عائشة — زوجة الصغيرة المحبوبة تلك التي اشتهرت بين المسلمين بجميع المناقب والفضائل طول حياتها — هذه السيدة البارعة الجمال والفضيلة ، سألته ذات يوم : « أليست الآن أفضل من خديجة ؟ » لقد كانت أرملة مسنة قد ذهب جمالها ، وأراك تعجبني أكثر مما كنت تعجبها : « فأجاب محمد : كلا والله لست أفضل منها وكيف وهي التي آمنت بي والكل كافر ومكبر ، ولم يك لي في هذا العالم إلا صديق واحد — وهذا الصديق هي . » وقد آمن به مولاه زيد بن حارثة ، وعلى (عليه السلام) ، وهو لاء الثلاثة أول من آمن به .
الدعوة إلى الإسلام وما قاله محمد في سبيلها :

وجعل يذكر رسالته لهذا ، ولذلك ، فما كان يصادف إلا جهوداً وسخرية ، حتى أنه لم يؤمن به في خلال ثلاثة أعوام إلا ثلاثة عشر رجلاً وذلك انتهى البطله وبئس التشجيع ، ولكنه المنة في مثل هذه الحالة . وبعد هذه السنين الثلاث أدب^(١) ما ذبة لأربعين من ذوى قرابته ، ثم قام بينهم خطيباً ، فذكر دعوته وأنه يريد أن يذيعها في سائر أنحاء الكون وأنها المسألة الكبرى بل المسألة الوحيدة ، فأبهم محمد إليه يده .
 وبأخذ يناصره ؟

مرودة على ونجدته :

وبينا القوم صامتون حيرة ودهشة وثب على (كرم الله وجهه) - وكان غلاماً في السادسة عشرة - وكان قد غاظه سكوت الجماعة فصاح

(١) أدب بفتح الالف والذال : صنع طعاماً ودعا إليه الناس .

في أحدث طبعة ، أنه ذلك النصير والظهير ، ولا يحتمل أن القوم كانوا منابذين محمداً ومعاديه ، وكلامهم من ذوى قرابته ، وفيهم أبو طالب هم محمد وأبو علي ، ولكن رؤية رجل كهل أبيض عينه غلام في السادسة عشرة يقومان في وجه العالم بأجمعه ، كانت مما يدعو إلى العجب المصنوع فانقض القوم ضاحكين ، ولكن الأمر لم يك بالمضحك ، بل كان نهاية في الجلد والخطر ، أما على فلا يسعنا إلا أن نحبه ونعشقه ، فإنه فقي شريف القدر ، كبير النفس يفيض وجدانه رحمة وبراً ، وينظف فؤاده بجدرة وحاسة ، وكان أشجع من ليث ، ولكنهما شجاعة بمروجة بركة ولطاف ، ورأفة وحنان ، جدير بها فرسان العالم في القرون الوسطى ، وقد قتل بالكوفة خيلة ، وإنما جنى ذلك على نفسه بشدة عدله ، حتى حسب كل إنسان عادلاً مثله ، وقال قبل موته حينما أومر في قتاله : « إن أعش فالأمر لي ، وإن أمت فالأمر لكم ، فإن آثرتم أن تقتلوا فضرية بضربة ، وإن تعفوا أقرب إلى التقوى » .

استيلاء قریش من عمل محمد :

وكان في عمل محمد هذا إساءة ولا شك إلى قریش ، حواس الكعبة وخدمة الأصنام ، وانضم إليه منهم رجلان أو ثلاثة أولو بأس ونفوذ ، وسرى أمر محمد ببطء ولكن سرعان على كل حال ، وكان عمله بالطبع صمى الواقع لدى كل إنسان ، وجعلوا يقولون من هذا الذي يزعم أنه أعقل منا جميعاً ؛ والذي يصفنا ويرمينا بالحق وعبادة الخشب ؟

نصيحة أبي طالب وعزيمة محمد :

وأشار عليه أبو طالب أنها سيكتم أمره ويؤمن به وحده ، وأن يكون له من نفسه ما يشغله عن العالم ، وأن لا يخطط القوم ويثير غضبهم عليه فيخيل (١) بذلك حياته ، فأجاب به محمد : « والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري ، على أن أترك هذا الأمر ، حتى يظهره الله ، أهلك فيه ما تركته » كلا فإن في هذه الحقيقة التي جاء بها ، شيئاً من عنصر الطبيعة (٢) ذاتها ، لا تفضل الشمس ولا القمر ، ولا أي مصنوعات الطبيعة ، ولا يك لتلك الحقيقة من أن تظهر ، برغم الشمس والقمر ، مادام قد أراد أن تظهر ، وبرغم قرينيه جميعاً ، وبكره سائر التلائق والكائنات ، نعم لابد من أن تظهر ، ولا يسعها إلا أن تظهر ، بذلك أجابه محمد ؛ ويقال إنه « اغرورقت عيناه اغرورقت عيناه لقد أحس من عمه البر والشفقة ، وأدرك عورة الحال ، وعلم أنه أمر ليس بالهين اللين ، ولسكنه أمر صعب المراس مرّ المذاق .

مواصلة محمد الدعوة واحتماله الشدائد :

واستمر يؤدي الرسالة إلى كل من أصغى إليه ، وينشر مذهبه بين الجميع ، مدة إقامتهم بمكة ؛ ويستميل الأتباع هنا وهناك ، وهو ياتي أثناء كل ذلك مناوذة ومناوأة ، ومناسبة بالعداوة ؛ وبجاهرة وشرأ باديًا وكامناً ؛ وكانت أقاربه تحميه وتدافع عنه ؛ ولسكنه عزم هو وأتباعه على الهجرة إلى الحبشة ، فوقع خبر ذلك المزم من قرين أسوأ موقع ،

(١) أي يعرض حياته للخيار . (٢) بل هي من مخلوقات الله .

وهذا عفت حنتهم عليه فنصبوا له الأشرار ؛ وبشوا له الحبسائل ؛
 وأقسموا بالآلثة لبيعةتان محمدآ بأيديهم ؛ وكان عت خديجة قد توفيت
 وتوفي أبو طالب ؛ وتعلمون أصلاًكم الله أن محمدآ ليس بحاجة إلى أن
 نرثي له ولحالته الشكراء إذ ذاك ومقامه الضئيل ، وموقفه الخرج ؛
 ولكن اعرّفوا معنى أن حاله إذ ذاك من الشدة والبلاء لم ير مثلهما
 لإنسان قط ؛ فلقد كان يفتني في الكهوف وينس متفكراً إلى هذا
 المسكن ؛ إلى ذاك ؛ لا مأوى ولا مجبر ؛ ولا ناصر ؛ تهدده المملكات ؛
 وتفخر له أفواهما المتأيا ؛ وكان الأمر يتوقف أحياناً على أدنى صغيرة
 - كما جمال فرس من أفراس أتباع محمد - فلو حدث ذلك لاضاع كل
 شيء ؛ ولكن أمر محمد - ذلك الأمر العظيم ما كان لينتهي على مثل
 تلك الحال .

تألب قریش علی محمد لبيعةتلوه ، وهجرتہ إلى المدينة :

فلما كان العام الثالث عشر من رسالته ؛ وقد وجد أعداءه مشألبين
 عليه وكانوا أربعين رجلاً ؛ كل رجل من قبيلة ؛ اتتمروا به لبيعةتلوه
 وإلى المقام بمكة مستحيلاً ، هاجر إلى يثرب حيث التف به الأنصار ،
 والبلدة تسمى الآن د المدينة ، أي مدينة النبي ، وهي من مكة على
 ٢٠٠ ميل تقويم وسط صحور وقفار ، ومن هذه الهجرة يتبدى
 التاريخ في المشرق والسنة الأولى من الهجرة توافق ٦٢٢ ميلادية ،
 وهي السنة الخامسة والخنسون من عمر محمد ، فترون أنه كان قد أصبح
 إذ ذاك شيخاً كبيراً وكان أصحابه يوتون واحداً بعد واحد ، ويخلون

أمامه مسلحاً وحرّاً ، وسبيلاً قفراً وخطئة نكراً موحشة . فإذا هو لم يجد من ذات نفسه مشجعاً وحرّاً ويفجر بعزمه ينبوع أمل بين جنبيه ، فمهمات أن يجد بأوقات الأمل ، فيما يصدق به من حوايس الخطوب ، ويحيط به من كالحات المحن والملمات ، وهكذا شأن كل إنسان في مثل هذه الأحوال .

الرد على الفاتنين بأن الإسلام ينتشر بالسيف :

وكانت نية محمد صلى الله عليه وآله أن ينشر دينه بالحسكة ، والموعظة الحسنة فقط ، فلما وجد أن القوم الفاتنين لم يكتفوا برفض رسالته السماوية ، وعدم الاصغاء إلى صوت ضميره وصيحة إله ، حتى أرادوا أن يسكنوه فلا ينطق بالرسالة - هزم ابن الصحراء على أن يدافع عن نفسه ، دافع رجل ثم دافع عربي ، ولسان حاله يقول : أما وقد أبسه قريش إلا الحرب ، فلينفذوا أي فتیان هيجاء نحن ، وحقاً رأى فإن أولئك القوم أغلقوا آذانهم عن كلمة الحق ، وشريعة الصدق ، وأبوا إلا تمادياً في ضلالهم يستبجسون الحريم ، ويهتكون الحرمات ، ويسلبون وينهبون ، ويقتلون النفس التي حرم الله قتلها ، ويأتون كل أثم ومنكر ، وقد جاءهم محمد من طريق الرفق والائاة ، فأبوا إلا عدواً وطغياناً ، فلم يجعل الأمر إذن إلى الحسام المهند ، والوشيع المقوم ، وإلى كل مسرودة حصداء ، وسابحة جرداء ، وكذلك قضى محمد ببقية عمره وهي عشر سنين أخرى في حرب وجهاد ، لم يسترح غصنة عين وكانت النتيجة ما تملكون (١) ؟

(١) كلامه السابق يؤخذ بهذر لأنه إن أنصف الإسلام في نقطة يسمى إليه في أخرى .

واقعد قيل كثيرآ فى شأن نشر محمد دينه بالسيف ، فإذا جعل الناس ذلك دليلا على كذبه ، فشد ما أخطأوا وسجاروا ، فهم يقولون : ما كان الدين ليذشر لولا السيف ، ولكن ما هو الذى أوجبه السيف ؟ هو قوة ذلك الدين وانه حق ، والرأى الجديد أول ما يذشأ يكون فى رأس ربهل واحد ، فالذى يعتقده هو فرد — فرد ضد العالم أجمع . فإذا تناول هذا الفرد سميفها وقام فى وجه الدنيا والله يضيع . وأرى هلى العموم أن الحق يذشر نفسه بأية طريقة ، حسبها ثقة تنبيه الحلال . أو لم تروا أن النصرانية كانت لا تأنف أن تستخدم السيف أحيانا .؟ وحسبكم ما فعل شارلمان بقبائل السكسون ، وأنا لا أحفل أكان انتشار الحق بالسيف ، أم باللسان أم بأية آلة أخرى .

لا يصح إلا الصحيح :

فلندع الحقائى تنشر سلطانها بالخطابة أو بالصحافة أو بالغار . لندعها تكافح وتجاهد بأيديها وأرجلها وأظافرها فإنها إن تهوم إلا ما كان يستحق ، أن يهزم ، وليس شى طاقها قط أن تفنى ما هو خير منها ، بلى هو أحسن وأدنى ، فإنها حرب لا حكم فيها إلا الطبيعة ذاتها ، ونعم الحكم ما أعدل وما أقسط ، وما كان أعين عندورآ فى الحق ، وأذهب اعراقآ فى الطبيعة ، فذلك هو الذى ترونه بعد الهرج والمرج والنزواء والجلابة ، فامياً زاكياً وحده .

عدل الطبيعة :

أقول الطبيعة أعدل حكم ، بلى ، ما أعدل وما أعدل وما أرحم وما أحلم انك تأخذ حبوب القمح لتجملها فى بطن الأرض ، وربما كانت هذه الحبوب مخلوطة بقشور وتبن وقمامة وتراب ، وسائر أصناف الأتار ، ولكن لا بأس عليك من ذلك ، والى الحبوب بجميع

ما يحاطها من القذى في جوف الأرض العادلة البارة فإنما لا تمليك
 إلا قبحاً خالصاً نقياً فأما القذى فإنما تباها في مكون وتدفعه ولا تذكر
 عنه كلمة وما هي إلا برهة حتى ترى الفمبح زاكياً يهز كأنه سبائك الذهب
 الإبريز ، والأرض السكرية قد حاولت كشحاً على الأقدام وأعفت بل
 أنها حاولتها كذلك إلى أشياء نافذة ولم تشك منها شجراً ولا نصيباً ،
 وهكذا الطبيعة في جميع شؤونها فهي لا باطل ، وهي عطفية وحادة
 ورحيمة حنون ، وهي لا تشترط في الشيء إلا أن يكون صادق الباب
 حر الصميم ، فإذا كان كذلك حمته وحرسه ، أو كان غير ذلك لم تقمه ولم
 تحرسه ، فترى لكل شيء فهمه الطبيعة روحاً من الحق ، ليس شأن
 محبوب القبح هذه والطبيعة هو شأن كل حقيقة كبرى ، جاءت إلى هذه
 الدنيا أو تجيء فيما بعد ؟ أعني أن الحقيقة مزيج من حق وباطل ، نور
 في ظلام ، وتحيثما الحقائق في أبواب من القضايا المطلقة والنظرات
 العلمية عن الكائنات . لا يمكن أن تكون تامة صحيحة صائبة ، ثم لا بد
 من أن يجيء يوم يظهر فيه نقصها وخلوها وجورها ، فتموت وتذهب .
 نعم يموت ويذهب جسم كل حقيقة ولكن الروح يبقى أبداً ويتخذ
 ثوباً أطهر ، وبدناً أشرف ، وما يزال ينتقل من الأبواب والأبدان
 من حسن إلى أحسن وجيد إلى أجود ، مسنة الطبيعة التي لا تتبدل ،
 نعم لأن جوهر الحقيقة الكريم حتى لا يموت وإنما النقطة المهمة
 والأمر الوحيد الذي يعرض في محكمة الطبيعة ويجاس قضائها ، هو هل
 هذا الروح حق وصوت من أعماق الطبيعة ؟ وليس بهم عند الطبيعة
 ما نسميه نقاء الشيء أو عدم نقائه وليس هو بالسؤال النهائي ، ليس الأمر
 المهم عند الطبيعة حينما تقدم إليها أنت لتصدر حكمها فيك ، هو أفيك
 أقدار وأكدار أم لا ؟ وإنما هو أفيك جوهر حق وروح صدق أم لا ؟

أو بمجارة تشييدية ليس السؤال المهم عند الطبيعة هو أفيك قشور أم لا ؟ بل أفيك قح ؟ أيقول بعض الناس إنه نقى ، إني أقول له : نعم نقى — نقى جداً ولكنك قشر — ولكنك باطل وأكذوبة وزور وثوب بلا روح ومجرد اصطلاح وعادة ، وما امتد بينك وبين نمر السكون وقلب الوجود سبب ولا صلة ، والواقع أنك لا نقى ولا غير نقى ، وإنما أنت لا شيء ، والطبيعة لا تعرفك وإنما منك براء .
قضاء محمد علي وثنية العرب والحقائد الفاشية في تلك الأيام

ونظر محمد من وراء أصنام العرب السكاذبة ومن وراء مذاهب اليونان واليهود ، ودواياتهم وبراهينهم ، وزاعمهم وقضاياهم — نظر ابن القفار والصحاري بقلبه البصير الصادق ، وعينه المتوقدة الجليلة إلى لباب الأمر وصميمه فقال في نفسه : الوثنية باطل ، وهذه الأصنام التي تصقلونها بالزيت والدهن فيقع عليها الذباب ، أخشاب لا تقصر ولا تنفع ، وهي منكر فطبيع وكفر لو تعلمون ، إنما الحق أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، خلقكم وبهده حياتكم وموتكم ، وهو أرف بكم منكم ، وما أصابكم من شيء فهو خير لكم لو كنتم تفقهون .
ولن ديناً آمن به أولئك العرب الوثنيون وأمسكوه بقلوبهم النارية لجدير أن يكون حقاً وجدير أن يصدق به ، وأن ما أودع هذا الدين من القواعد هو الشيء الوحيد الذي للإنسان أن يؤمن به ، وهذا الشيء هو روح جميع الأديان — روح تلبس أثواباً مختلفة وأثواباً متعددة ، وهي في الحقيقة شيء واحد ، واتباع هذه الروح يصبح الإنسان اماماً كبيراً لهذا المعبد الأكبر : السكون جاريماً على قواعد الخلق ، تابعاً لقوانينه لا يحاول عبثاً أن يقاومها ويدافعها ، ولم أعرف قط تعريفاً للواجب

أحسن من هذا ، والصواب كل الصواب في السير على منهاج الدنيا ، فإن الفلاح في ذلك (إذا كان منهاج الدنيا هو طريق الفلاح) .
 وسماه محمد وشيع النصارى تقيم أسواق الجدل واتخاذ بط بالحجج الجائرة وماذا أفاد ذلك ؟ وماذا أثمر ؟ أما أن الأهم ليس صحة ترتيب القضايا المنطقية وحسن إنتاجها وإنما هو أن خلق الله وأبناء آدم يمتدنون تلك الحقائق الكبرى . ففسد به الإسلام على تلك المال السكاذبة والنسل الباطلة ما يتلهم وحقق له أن يتلهم لأنه حقيقة خارجة من قلب الطبيعة ، وما كاد يظهر الإسلام حتى احترقت فيه . وثنيات العرب ، وكل ما لم يكن بحق ، فإنما سطبت ميت أكلته نار الإسلام . فذهب والنار لم تذهب .

القرآن وإيجازه

أما القرآن فإن فرط إعجاب المسلمين به وقولهم بإيجازه هو أكبر دليل على اختلاف الأذواق في الأمم المختلفة . هذا وأن الترجمة تذهب بأكثر جمال الصيغة (١) وحسن الصياغة ولذلك لا عجب إذا قلت أن الأوربي يجهل في قراءة القرآن أكبر عناء ، فهو يقرؤه كما يقرأ الجرائد ، لا يزال يقطع في صفحاته قفارا من القول الملل المتعب ، ويحمل على ذهنه هضابا وجهالامن السكام ، لكي يماثني خلال ذلك على كلمة مفيدة ، أما العرب فيرونه على عكس ذلك لما بين آياته وبين أذواقهم من الملاممة ، ولأن لا ترجمه ذهبت بحسنه ورونقه ، فلذلك رآه العرب من المعجزات وأعطوه من التمجيل ما لم يعطه أمتي النصارى لإنجيلهم ، وما جرح في كل زمان ومكان قاعدة التشريع والعمل والقانون المتبع في شؤون الحياة .

(١) الأصح أن يقال بلاغته الإلهية .

ومسائلها . والوحى المنزل من السماء هدى للناس وسراجاً منيراً ،
يضيء لهم سبل العيش ويهديهم صراطاً مستقيماً ، ومصدر أحكام
النضافة ، والدرس الواجب على كل مسلم حفظه والاستئذنة به في غياهب
الحياة ، وفي بلاد المسلمين مساجد يتلى فيها القرآن جميعه كل يوم مرة ،
يتقاسمه ثلاثون قارئاً على التوالي ، وكذلك ما برح هذا الكتاب يورن
صوته في آذان الآلاف من خلق الله وفي قلوبهم اثني عشر قرناً في كل
آن ولحظة ، ويقال إن من النقباء من قرأه سبعين ألف مرة ۱۱

الإخلاص من فضائل القرآن :

إذا خرجت الكلمة من اللسان لم تتجاوز الآذان ، وإذا خرجت
من القلب نفذت إلى القلب ، والقرآن خارج من فؤاد محمد (ص) فهو جدير
أن يصل إلى أفئدة سامعيه وقارئييه . وقد زعم «براديه» ، وأمثاله أنه
طائفة من الأخاديع والنزائيق انفقها محمد لتسكون أعذاراً له عما كان
يرتكب ويتترف ، وذرائع لبلوغ مطامعه وغاياته ۱۱ ولكنه قد آن
لنا أن نرفض جميع هذه الأقوال ، فإن لامة كل من يرمى محمد (ص)
بمثل هذه الأكاذيب وما كان ذو نظر صادق ليرى قط في القرآن مثل
ذلك الرأي الباطل . والقرآن لو تبصرون ما هو إلا جمرات ذاكيات
قد فت بها نفس رجل (ص) كبير النفس بعد أن أوقعتها الأفكار الطوال ،
في الخاوات الصامتات ، وكأنه الخواطر تتراكم عليه بأسرع من لمح
البصر ، وتتزاخم في صدره حتى لا تسكاد تجدد هرجا ، وقل ما نطق
به جانب ما كان يجيش بنفسه العظيمة القوية ، هذا وقد كان تدفع الوقائع

(١) و (٢) هذا تعبير خاطيء ، والصحيح أنه وحى من الله .

وتدق المطوب يجعله عن رؤية القول ، وتنميق الكلام ويا لها من
خطوب كانت تلقيح به وتطير ، فلقد كان في هذا السنين الثلاث
والعشرين قطياً لرحى حوادث متلاحقات متصادمات وطالم كله هرج
وفتن ومحن : شروب مع قریش والكفار ، ومخاصمت بين أصحابه (١) ،
وهياج نفسه وثوراتها - كل ذلك جعله في نهب دائم وعناء مستور فلم
تذق نفسه الراحة بعد قيامه بالرسالة قط ، وقد أتخيل روح عمدة الحادة
الفارسية وهي تتسمل طول الليل الساهر يطفو بها الوجد ويرسب وتدوون
بها دوامات الفكر حتى إذا أسفرت لها بارقة رأى حسبته نوراً بهط عليها
من السماء ، وكل هزم مقدس يهيم به يخاله جبريل ووحيه (٢) . أيزعم
الفاكون الجملة انه مشعوذ ومحتال ؟ كلا ثم كلا ! ما كان قط ذلك
القلب المحتدم الجاثش كأنه تنور فكر يفور ويتأجج ، ليكون قلب
محتال ومشعوذ . لقد كانت حيااته في نظره حقاً ، وهذا الـكون حقيقة
رائعة كبيرة .

الإخلاص منشأ الفضائل :

والإخلاص المحض الصراح يظهر لي أنه فضيلة القرآن التي حببته
للي العربي وهي أول فضائل الكتاب أيا كان وآخرها وهي منشأ فضائل
غيرها ، بل لا شيء غيرها يمكنه أن يبعث للكتاب فضائل أخرى ، من
العجب أن نرى في القرآن عرقاً من الشعر يجرى فيه من بدايته إلى نهايته
ثم يتخلله نظرات نافذات - نظرات نبى وحكيم - أجل لقد كان محمد

(١) لم يحدث بين الصحابة مخاصمت إلا كما يكون بين الإخوة ،
والأحباب . (٢) بل كان ﷺ مؤيداً بمداية الله لا يتخيل إليه .

في شؤون الحياة عين بصيرة ثم كان له قدرة عظيمة على أن يوقع في أذهاننا كل ما أبصره ذهنه (١) .

القرآن عمل أسرار الأمور:

أنا لا أحفل كثيراً بما جاء في القرآن من الصلوات والتحميد والتمجيد لأنني أرى لها في الإنجيل شبهاً ، ولكنني شديد الإعجاب بالنظر الذي ينفذ إلى أسرار (٢) الأمور ، فهذا أعظم ما يلذني ويعجبني ، وهو ما أجده في القرآن ، وذلك كما قلت فضل الله يؤتیه من يشاء .

المعجزات في نظر الإسلام :

وكان محمد إذا سئل أن يأتي بمعجزة قاله : حسبكم بالسكون معجزة انظروا إلى هذه الأرض أليست من عجائب صنع الله ؟ وآية على وجوده وعظمته ! هذه الأرض التي خلقها الله لكم ونهج لكم فيها مسابلاً تسعون في مائة وأتاكم من رزقه وهذا السحاب المسير في الآفاق لا يدري من أين جاء وهو مسخر في السماء كل معجزة كارد أسود ثم يسبح بمائه ويهضب ليجي أرضاً مواتاً ويخرج منها نباتاً ونخيلاً وأهنا بآ : أليس ذلك آية ؟ والألغام خلقها لكم تحول السكك لجنات وهي فخر لكم . والسفن - وكبيراً ما يذكر السفن - كالجبال العظيمة المنحركة تنشر أجنحتها وتحتفز في سواء اليم ، لها حاد من الريح وبينما تسير إذا هي قد وقفت بغية وقبض الله الريح ، معجزات والله بكل هذه وأى معجزات بعدها تريدون ؟ أستم أنتم معجزات ! لقد كنتم صغاراً وقبل ذلك لم تكونوا أبداً ثم لكم جمال وقوة وعقل ، ثم

(١) هو يرى أن في القرآن شعراً ، وهذا قول باطل : ﴿ وما علمناه الشعر وما ينبغي له ﴾ . (٢) ليس نظراً وإنما هو كلام الله تعالى .

وهبكم الرحمة أشرف الصفات ، وتوهمون ويأتونكم المشيب وتهدفون
وتنزعظكم وتموتون فتصيحوا غيـر موجودين « ثم وهبكم الرحمة »
لقد أدهشتني جداً هذه الجملـة ؛ فإن الله ربها كان خلق الناس بلا رحمة
فإذا كان يسـكون أمرهم هذه من محمد نظـرف نافذة إلى لباب الحقيقة .
وكذلك أرى في محمد دلائل شاعرية كبيرة وآيات على أشرف
الحامد وأكرم الخصال . وأتأين فيه عقلاً راجحاً عظيمـاً وعيناً بصيرة
وفؤاداً صادقاً ورجلاً قويا عبقرياً ولو شاء لسكان شاعراً فحلاً أو فارساً
بطلاً ، أو ملكاً جليلاً ، أو أى صنف من أصناف الإبطال . نعم
لقد كان العالم فى نظره معجزة أى معجزة . وكان يرى فيه كل ما كان
يراه أعظم المفكرين حتى أنهم الشبال المتوحشة ، وهو أن هذا
الـكون الصاب المـسـادى إنما هو فى الحقيقة لا شـئ إنما هو
آية على وجود الله منظورة ملموسة وهو ظل علقه الله على صدر
الفضاء لا غير . وكان يقول : هذه الجبال الشامخات ستحلل وتذوب
مثل السحاب وتنفى ، وكان يقول : الجبال أوتاد الأرض وإنما ستنفى
كذلك يوم القيامة وأن الأرض فى ذلك اليوم العظيم تصدع وتفتت
وتذهب فى الفضاء هباءاً منثوراً ، فتندم ، وكان لا يزال واضعاً
العينية سلطان الله على كل شـئ وامتلاء كل مكان بقوة محمولة ، ووفق
باهر ، وهول عظيم ، هو القوة الصادقة والجوهر والحقيقة ، وهذا
ما يسميه علماء العصر القوى والمادة ، ولا يرونه شيئاً مقدساً ، بل
لا يرونه شيئاً واحداً وإنما هو أشياء تباع بالدرهم وتوزن بالميزان ،
وتستعمل فى تسير السفن البخارية ، فمرعان ما تنسينا السكيات

والحسابيات ما يمكن في السكائنات من سر الله ، وما أخش ذلك النسيان عاراً ، وأكبر هذه الغفلة لآثماً ، وإذا نسيت ذلك فأى الأمور يستحق الذكر إذن ، فعظم العلوم أشياء ممتة خاوية بالية - بقلة ذابطة ، نعم وما أحسب العلم لولا ذلك إلا خشباً يابساً ميمناً وليس هو بالشجرة الدائمة ، ولا بالغابة السكيفة الملتفة ، التي لا تبرح تمدك بالخشب إثر الخشب فيما تمدك وتعطيك ، ولن يبعد المرء السبيل إلى العلم حتى يبعد أولاً إلى العبادة ، أعنى أنه لا علم إلا لمن عبد ، وإلا فما العلم إلا شقة شقة كاذبة ، وبقلة كما قلت ذابطة .

الرد على متهمى الاسلام بشهوانية :

وقد قيل وكتب كثيراً في شهوانية الدين الإسلامى ، وأرى كل ما قيل وكتب جوراً وظلماً ، فإن الذى أباحه محمد بما يحرمه المسيحية لم يمكن من تلقاء نفسه ، إنما كان جارياً مقبلاً لدى العرب من قديم الأزل ، وقد قلل محمد هذه الأشياء جهده ، وجعل عليها من الحدود ما كان فى إمكانه أن يجهل ، والدين المحمدي يمد ذلك ليس بالسمل ولا بالمين ، وكيف ومعه كل ما تعلمون من الصوم والوضوء ، والقواعد الصعبة الشديدة ، وإقامة الصلاة خمساً فى اليوم ، والحرم من الخمر ١١ . وليس كما يزعمون : كان نجاح الإسلام وقبول الناس إياه لسهولة ، لأنه من أخش الطعن على نبي آدم والقدح فى أعراسهم ، أن يتمتعوا بأن الباهت لهم على محاولة الجمال وإتيان الجسام ، هو طالب الراحة ، واللذة التماس الحلو من كل صنف فى الدنيا والآخرة أكلاً فإن أخس الآدميين

لا يخلو من شيء من العظمة والجلال ، فالجندى الجاهل الجلف الذى
يؤجر يمينه وروحه فى الحروب بأجر بخس ، له مع ذلك « شرف » ،
يخالف به فتراه لا يبرح يقول : لأفعلن ذلك وشرفى ، وإليست أمنية
أحقر الآدميين هى أن يأكل الحلوى ، بل أن يأتى عملاً شريفاً وفعلًا
محموداً ، ويثبت للناس أنه رجل فاضل كريم . ليعمد أيكم إلى أبلك
إنسان فيريد سبيل المسكرات والمخامد ، فإذا هو قد تأجج قلبه حماساً
واتقنت نفسه غيره ، وصار فى الحال بطلاً . وما أظلم الذين يتهمون
الإنسان بقولهم إنه ميال بفطرته إلى الراحة ، وإنه يستهوى بالترف
ويستغوى باللذة ، إنما مغريات الإنساف وجاذباته هى الأحوال
والصعائب والاستشهاد والقتل ، اقدح ما بنفس المرء من زناد الفضل ،
تلك ناراً تخرق سائر ما فيه من الخسائس والنقائص . وما كان قط
اعتناق الناس لدين من الأديان لما يرجون من متاع ولذة ، بل لما يثور
فى قلوبهم من دراعى الشرف والعظمة .

براعة محمد من الشهوات وتواضعه وتقشفه :

وما كان محمد أخا شهوات ، برغم ما اتهم به ظالموا وعدوانا ،
وشدت ما فجور ونخلى ، إذا حسبناه رجلاً شهويًا ، لا هم له إلا قضاء
مآربه من الملاذ ، كإفرا أبعد ما كان بينه وبين الملاذ أية كانت ، لقد
كان زاهدًا متقشفًا فى مسكنه ، ومأكله ، ومشربه ، وملبسه ، ومائر
أموره وأحواله ، وكان طعامه عادة الخبز والماء ، وربما تمتا بعت الشهور
ولم توقد بداره نار ، وانهم ليذكرون - ونعم ما يذكرون - أنه كان

يصلح ويرفر ثوبه بيده ، فهل بعد ذلك مكرمة ومفخرة ؟ فخبذا محمد من رجل خشن اللباس ، خشن الطعام ، يجتهد في الله قائم النهار ، ساهر الليل ، دأباً في نشر دين الله ، غير طامع إلى ما يطمع إليه أصاغر الرجال من رتبة أو دولة أو سلطان ، غير متطلع إلى ذكر أو شهرة كيفة ما كانت ، رجل عظيم وربكم وإلا فما كاف ملاقياً من أولئك العرب الغلاظ توقيراً واحتراماً ولا كباراً ولا عظماً ، وما كان يمكنه أن يقودهم ويعاشرهم معظماً أرقانه ، ثلاثاً وعشرين حجة وهم ملتفون به يقاوتون بين يديه ويجاهدون حوله ، لقد كان في هؤلاء العرب جفاء ، وغلظة ، وبادرة ، وعجرفة ، وكانوا حماة الأنوف ، أباة الضيم ، وعرو المقادة صمباب الشكيمة ، فن قدر على ربا صفتهم ، وتذليل جانبيهم حتى رضخوا له واستقادوا فذللكم وأيم الله بطل كبير ، ولولا ما أبصروا فيه من آيات النيل والفضل ، لما خضعوا له ولا أذعنوا ، وكيف وقد كانوا أطوع له من بنيانه .

وظي أنه لو كان أتبع لهم بدل محمد قيصر من القياصرة بتاجه وصولجانه لما كان مصيباً من طاعتهم مقدار ما ناله محمد ، في ثوبه المرقع بيده ، فكذلك تكون العظمة ، وهكذا تكون الأبطال .

مكرمات محمد وأخلاقه :

وكانت آخر كلماته تسبيحاً وصلابة - صوت فؤاد يهيم بين الرجا والخوف ، أن يصمد إلى ربه ، ولا يحسب أن شدة تدينه أذرت بفضلته كلاب زاداته فضلاً ، وقد يروى عنه مكرمات عالية ، منها قوله حين رزى غلامه (١) :

(١) أي حين فقد ابنه إبراهيم .

« العين تدمع والقلب يوجع ، ولا نقول ما يستخط الرب » .
ولما استشهد مولاه زيد ابن حارثة في غزوة « مؤتة » قال محمد بن
« لقد جاهد زيد في الله حق جهاده ، وقد اتى الله اليوم فلا بأس
عليه » . ولما كان ابنه زيد وجدته بعد ذلك يبكي على جثة أبيها - وجدت
الرجل السكبي الذي دبّ في رأسه المشيب يذوب قلبه دمعاً فقالت :
« ماذا أرى » ؟ قال : « صديقا يبكي صديقه » .

مثل هذه الأقوال وهذه الأفعال تروينا في محمد أخا الإنسانية
الرحيمة ، أخانا جميعا الرقوف الشفيق ، وابن أمنا الأول وأبينا الأول .

براعة محمد من الرياء والتصنع :

ولمّا لأصحاب محمد أبراء طبعه من الرياء والتصنع ، ولقد كان
ابن القنفذ هذا رجلاً مستقل الرأي ، لا يعول إلا على نفسه ، ولا يذهب
ما ليس فيه ، ولم يك متكبراً ولا سكتة لم يكن ذليلاً ضرعاً . فهو قائم
في نوبه المرقع كما أوجده الله ، وكما أراد ، يخاطب بقوله الحر المبين ،
قياصرة الروم وأكاسرة العجم ، يرشدهم إلى ما يجب عليهم لهذه
الحياة وللحياة الآخرة ، وكان يعرف لنفسه قدرها ، ولم تغل الحروب
الشديدة التي وقعت له مع الأعراب من مشاهد قسوة ، ولا سكتة لم تغل
كذلك من دلائل رحمة وكرم وغفران . وكان محمد لا يعتذر من الأولى
ولا يفتخر بالثانية ، إذ كان يراها من وحى وجدانه (١) وأوامر
شعوره ، ولم يكن وجدانه لديه بالمتهم ولا شعوره بالظنين .

(١) بل هي من وحى إلهي لتكون سنناً من بعده .

ما كان محمد بماث :

وكان رجلاً ماضى العزم لا يؤخر عمل اليوم إلى غد وطالما كان يذكر يوم « تبوك » إذا أبى رجاله السير إلى موطن القتال ، واحتجوا بأنه أو أن الحصيد (١) ، وبالحر ، فقال لهم : الحصيد ! إنه لا يلبث إلا يوماً فإذا تنزودون للأخرة ؟ والحر ؟ نعم لأنه حر ولكن جهنم أشد حرّاً ، وربما خرج بعض كلامه تهكماً وسخرية ، إذ يقول للكفار : ستجزون يوم القيامة على أعمالكم ويوزن لكم الجزاء ثم لا تبعثون مثقال ذرة . وما كان محمد بماث قط ، ولا شاب شيئاً من قوله شائبة لعب ولهو بل كان الأمر عنده أمر خسران وفلاح ومسألة فناء وبقاء ، ولم يكن منه إزاهما إلا الإخلاص الشديد ، والجد المر .

التلاعب بالحقائق من أفطح الجرائم :

فأما التلاعب بالأقوال والقضايا المنطقية ، والعيب بالحقائق ، فما كان من شأنه قط . وذلك عندى أفطح الجرائم ، إذ ليس هو لارقدة القلب ووسن العين عن الحقائق ، وعيشة المرء في مظاهر كاذبة ، وليس كل ما يستنكر من مثل هذا الإنسان ، هو أن جميع أقواله وأعماله أكاذيب ، بل أنه هو نفسه أكذوبة ، وأرى خصلة المروءة والشرف - شعاع الله متضائلاً في مثل ذلك الرجل مضطرباً بين عوالم الحياة والموت - فهو رجل كاذب ، لا أنكر أنه مصقول اللسان ، مهذب حواشي الكلام ، يحترم في بعض الأزمان والأمكنة ؛ لا تؤذيك بأدوته ؛ لين المس رقيق الملمس ؛ لكنه كحمض الكربون ، تراه على لطفه سماً نقيعاً وموتاً ذريعاً (٢)

(١) القائلون لذلك هم المشافقون لأصحابية الرسول ﷺ .

(٢) من قوله « إذ ليس هو إلا » إلى « موتاً ذريعاً » وصف للمنعلاعب بالحقائق .

المساواة بين الناس من خلال الإسلام :

وفي الإسلام خلة أرواحا من أشرف الحلال وأجلها وهي التسوية بين الناس ، وهذا يدل على أصدق النظر ، وأصوب الرأي (١) . فأنفس المؤمن راجحة بجميع دول الأرض ، والناس في الإسلام سواء .

الزكاة في الإسلام :

والإسلام لا يكتفى بعمل الصدقة سنة محبوبة ؛ بل يجعلها فرضا حتما على كل مسلم (٢) ؛ وقاعدة من قواعد الإسلام ، ثم يقدسها بالنسبة إلى روة الرجل ، فتكون جزء من أربعين من الثروة (٣) ؛ ثم يطمئن إلى المقرء والمساكين والمكروبين . جميل والله كل هذا ، وما هو إلا صدى الإنسانية - صوت الرحمة والإخاء والمساواة ؛ يصيح من فؤاد ذلك الرجل (٤) - ابن القنار والصعراء .

الجنة والنار في نظر القرآن :

ويشكر البعض تغلب الحسية المادية على جنة محمد وناره ؛ فأقول إن العيب في ذلك على الشراح والمفسرين لا على ما جاء في الكتاب ، فإن القرآن قد أفقّ جدلاً من إلهاد الحسيات والماديات إلى الجنة والنار ، وكل ما فيه عن هذا الشأن إيهام وتلميح ، وإنما المفسرون والشراح هم الذين لم يتركوا لذة حسية ، ولا متعة شهوية حتى ألحقوها بالجنة ، (١) ليس في الإسلام رأى ، إنما هو مستمد من الكتاب والسنة والإجماع والقياس عليها .

(٢) هي فرض على القادر من المسلمين (٣) هذا تعميم غير دقيق ، ولكن للزكاة أحكام حسب نوع المال (٤) بل هو من عند الله .

ولا هذا با بدنيا وأما جسمانيا، حتى أسندوه إلى النار (١)، ثم لا تنسوا أن القرآن جعل أكبر ملاذ الجنة روحانيا إذ قل: ﴿وقال لهم خذوها سلام عليكم طيبتم فادخلوها خالدين﴾ بالسلام والآمن هما في نظر كل هائل أقصى أمانى المرء وأعظم الملاذ قاطبة ، الشيء الذى عبثا يتلمسه الإنسان فى الحياة الدنيا ، وقال أيضا ﴿ورزقنا ما فى صدورهم من غل﴾ إنخوانا دلى سرور متقباين ، وأى رذيلة أخبث من الغل مصدر المحن والمصائب والنفق والآفات ، وأى شيء أهنا من التآلف والتصاق ؟
الصيام فى الإسلام :

وأى داليل أشهر ببراعة الإسلام من الميل إلى الملاذ من شهر رمضان الذى تلجم فيه الشهوات ، وتزجر النفس عن غاياتها ، وتقذع عن آربها وهذا هو منتهى العقل والحزم ، فإن مباشرة الذات ليس بالمنكر ، وإنما المنكر هو أن تدل النفس لجوار الشهوات ، وتقنار الحادى الأوطار والرغبات ، ولعل أبجد الحصال وأشرف المكارم ، هو أن يكون للمرء من نفسه على نفسه سلطان ، وأن يجعل من لذاته لاسلاسل وأغلالا تهديه وتمنص عليه ، إذا هم أن يصدعها ، بل حايماوز خارف مق شاء فلا شىء أهون عليه من خلعاها ، ولا أسهل من نزعها . وكذلك أمر رمضان سواء أكان مقصوداً من عمد (٢) معيناً ، أو كان وحى الفريزة وإلهاماً فطرياً ، فهو والله نعم الأمر .

الجنة والنار رمز الحقيقة الأبدية :

ويمكننا القول دلى كل حال بأن الجنة والنار هاتين هما رمز لحقيقة

(١) كلامه ليس صحيحاً لأن للتفسير أصولاً عند المسلمين لم يطالع عليها
 (٢) بل هو وحى الله .

أبدية لم تصادف من حسن الذكر قط مثلاً صادفت في القرآن ، وماذا ترون تلك الجنة وملاذها واهوائه النار وعذابها ، وقيام الساعة التي يقول عنها : ﴿ يوم ترونها تذهل كل مرصعة هما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ﴾ ماذا ترون كل هذه الأطلا تمثل في خيال النبي (١) الشاعر للحقيقة الروحانية الكبرى رأس الحقائق أعني الواجب ، وجسامة أمره ، لئذ كان هذا الرجل يرى الحياة أمراً جسيماً ويرى لكل عمل إنساني مهما حق خطاؤه كبرى ، فما كان من سعى فله من السوء نتيجة أبدية ، وما كان صالحاً فله من الصلاح ثمرة سرمدية وأن المزم قد يسمو بصالحاته إلى أعلى عليين ، ويهبط بموبقاته إلى أسفل سافلين ، وإن على عمره القصير تقوم دعائم أبدية هائلة خفية . كل ذلك كان يلتهم في روح ذلك الرجل الفقير ، كأنما قد نقش شمت بأحرف النار ، وكل ذلك قد حاول في أشد إخلاص ، وأحد جد ، أن يخرج به للناس ويصوره لهم ، فأخبره وصوره في صورة تلكم النار والجنة ، وأى ثوب لبسته هذه الحقيقة ، وأى قالب صبغت فيه فلا تزال أولى الحقائق مقدسة في أى أسلوب وأى صورة .

منزلة الإسلام في قلوب المسلمين :

وعلى كل حال فهذا الدين ضرب (١) من النصرانية ، وفيه للمبشرين أشرف معاني الروحانية وأعلاها ، فأعرفوا له قدره ولا ينسوه حقه ، ولقد مضى هاهنا مئتان وألف عام وهو الدين القويم ، والصراط المستقيم لخمس العالم ، وما زال فوق ذلك ديناً يؤمن به أهله من حبيبات أفئدتهم (١) ما يقوله المؤلف خطأ وباطل ولا أساس له .

حولا أحسب أن أمة من النصارى اعتصموا بدينهم اعتصام المسلمين
بإسلامهم - إذ يوقنون به كل اليقين ، ويواجهون به الدهر والأبد ،
وسيفنادى الحارس الليلة في شوارع القاهرة أحد المارة (من السائر ؟)
فيجيبه السائر (لا إله إلا الله) . وأن كلمة التوحيد والتسكير والنهيال
لترن آناء الليل وأطراف النهار ، في أرواح تلك الملايين الكشيفة ،
وأن الفتنة ذوى الغيرة في الله والنفاني في حبه ، أيأتون شعوب الوثنية
في الهند والصين والمالاي ، فيهدمون أضاليلهم ، ويشيدون مكانها
قواعد الإسلام ، ونعم ما يفعلون .

تأثير الإسلام على العرب وفضله عليهم :

ولقد أخرج الله العرب بالإسلام من الظلمات إلى النور، وأحيا
به من العرب أمة هامدة وأرضاً هامدة ، وهل كانت إلا فتنة من جعالة
الاعراب ، خاملة فقيرة تجوب الفلاة ، منذ بدء العالم ، لا يسمع لها
صوت ولا تحس منها حركة . فأرسل الله لهم نبيا بكلمة من لدنه ورسالة
من قبله ، فإذا الخنول قد استحال شهرة ، والغمرض نباهة ، والضعة رفعة ،
والضعف قوة ، والشرارة حريقا ، وسمع نوره الانحاء وعمّ ضوؤه
الأرجاء ، وعقد شعاعه الشمال بالجنوب ، والمشرق بالمغرب ، وما هو
إلا قرن بعد هذا الحادث حتى أصبح لدولة العرب رجل في الهند
ورجل في الأندلس ، وأشرق دولة الإسلام حقا عديدا ، ودهورا
مديدة بنور الفضل والنبل ، والمروءة والبأس ، والنجدة . وروى
الحق والهدى على نصف المعمورة ، وكذلك الإيمان العظيم وهو مبعث

الحياة ومنبع القوة ، وما زال للأمة رقى في درج الفضل ، وتمريج
إلى ذرى المجد، ما دام مذهبها اليقين ومنهجها الإيمان ، الستم ترون
في حالة أولئك الأعراب ومحمد وعصرهم ، كأنما قد وقعت من
السما شرارة على تلك الرمال، التي كان لا يبهتر بها فضل، ولا يرجى
فيها خير ، فإذا هي بارود سريع الانفجار ، وما هي برمل بيت ،
وإذا هي قد تأججت واشتعلت ، واتصلت ناراها بين فرائط ودطى .
واظلمنا قلت إن الرجل العظيم كالشهاب من السماء ، وسائر الناس
في انتظاره كالخطب ، فما هو إلا أن يسقط حتى يتأججوا ويلتهبوا .

[تم الكتاب]

الطبعة الثانية
١٤١٣ هـ ~ ١٩٩٣ م
١٠٠